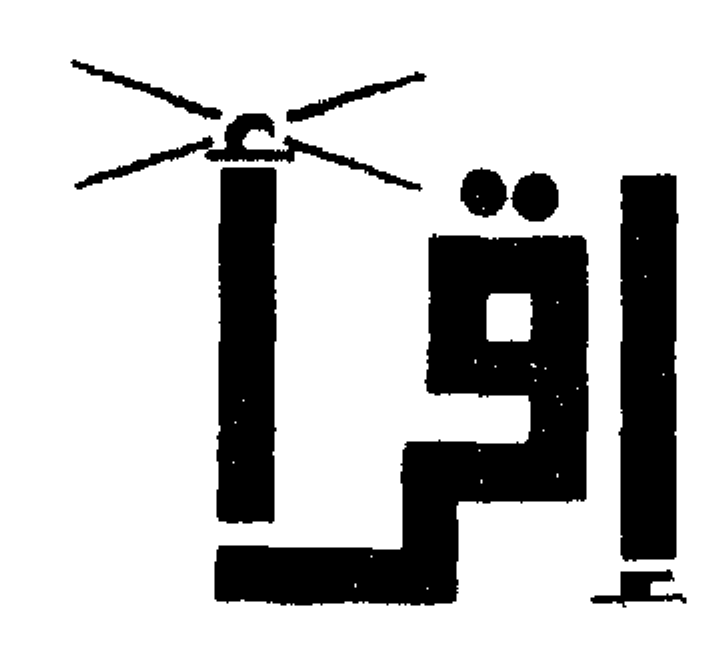
اقرأ

حسين الشافعي

نائب رئيس الجمهورية

في مولد النبي





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





حسين الشافعي
نائب رئيس الجمهورية

في مولد النبيّ

اقرأ ٣٤١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤١ – مايو سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

فى أواخر القرن الخامس الميلادى كثرت أقوال الناس عن قرب ظهور نبي من بين العرب . وكان العرب يعملون بالتجارة ، ويسافرون إلى الشام وغيرها من البلاد المحيطة بشبه الجزيرة ، وكانت قريش قمة القبائل العربية ، ولابد أنها سمعت ما يتردد خلال أسفار سادتها ورحلاتهم. وكان أمية بن أبى الصلت من رواة هذه الأحاديث ، وسمعه أبو سفيان ابن حرب فقال له : « إن هؤلاء الرهبان، إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون ، لأنهم فى جهل من أمر دينهم ، فهم فى حاجة إلى نبي يدلهم عليه ، أما ونحن نتخذ الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى ، فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا ، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله » .

كان عبد المطلب سادن الكعبة — أى المسئول عنها — وكانت مكاناً مقدساً عند العرب يحجون إليه ، وكان لايتولى هذا المنصب سوى القبائل والأسر الشريفة ، وكانت سدانة « الكعبة» تجعل القائم بها صاحب الأمر المطاع فى مكة كلها .

وكان عبد المطلب جد الرسول فى السبعينات من سنى حياته ، عندما حاول أبرهة الحبشى مهاجمة مكة وهدم بيت إبراهيم ، وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين ، فاختار له زوجة هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وفى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله ، تزوج أبوه عبد المطلب من هالة ابنة عم آمنة ، فأولدها حمزة عم النبي الذى كان فى مثل سنه .

وبعد أشهر قليلة توفى عبد الله ، وعاشت آمنة فى بيت عبد المطلب حتى وضعت .

وكان مولد النبى ، كما تقول بعض الروايات ، مصحوباً بعلامات وإشارات ، تعلن مولد طفل عظيم ذلك أن أمه لم تتحمل أى مشقة فى حمله أو ولادته ، وانبعثت يوم مولده أنوار عظيمة أضاءت ما بين المشرق والمغرب . . .

وقيل إن السماء والأرض ارتجتا لمولده ، وغاضت مياه بحيرة « ساوى » ، وجفت جوانبها ، وفاضت مياه دجلة ، واهتز عرش كسرى ، وسقط كثير من أبراج قصره ، ورأى « الموبان » خادم النار الأول عند الفرس رؤيا فى منامه أن فرساً عربياً قد صرع جملا ، وقص حلمه فى الصباح على كاهن فارس ، ففسره بأن بلاد فارس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب .

وفى تلك الليلة الخالدة ، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التى ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين ، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض . . . .

وكان عبد المطلب عند الكعبة ساعة مولد حفيده ، وإذ أبلغ النبأ فرح فرحاً عظيماً ، وهرع إلى الدار وحمل الوليد إلى الكعبة ، وهناك سماه « محمداً » ، ولم يكن هذا من أسماء العرب المتداولة ، وإن كان معروفاً . وكانت عادة أشراف العرب أن ترضع أطفالهن المراضع ، فرضع الوليد أولا من ثويبة جارية عمه أبى لهب ، ثم تسلمته حليمة بنت أبى ذؤيب من قبيلة بنى سعد ، ولهذا أطلق عليها « حليمة السعدية » .

ويقول كتاب السيرة العرب إن العناية الإلهية كانت ترعى حليمة طوال فترة بقاء الطفل فى رعايتها ، فلم تجف الآبار والعيون ، وظلت

المراعى دائماً خضراء ، وتضاعف عدد أغنامها ، وعم الخير أرضها . . .
قالت حليمة : « ثم قدمنا منازلنا ، من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أن فى أرض الله ما هو أجدب منها ، فكانت غنمى تروح ترعى وتأتى شباعاً ، فنحلب ونشرب » .

ولد محمد قبل إشراق نجمة الصباح بلحظات يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية). وقد ولد نظيفاً مختوناً .

وهناك خلاف بين المؤرخين حول العام الذى ولد فيه الرسول ، ولكن أكثرهم أجمع على أنه عام الفيل ، أى سنة ٥٧٠ ميلادية ، واختلف المؤرخون أيضاً حول الشهر الذى ولد فيه ، وإن كانت الأغلبية قد أقرت أن مولده كان فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول .

يقول وشنطون إيرفينج المؤرخ المستشرق الأمريكى (١٧٨٣ — ١٨٥٩) إن محمداً ولد فى شهر أبريل عام ٥٦٩ ميلادية ، ويذكر ابن هشام أن مولده كان يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول من عام الفيل ، ويقول العلامة محمود الفلكى المصرى إن تاريخ المولد هو صباح اليوم التاسع من ربيع الأول .

وفى اليوم السابع لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من العشيرة فجاءوا وأكلوا ، وإذ سألوا عبد المطلب عن سبب تسميته حفيده محمداً ، قال : « أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلق الله » .

بعد مولد محمد بأيام ، حضر إلى مكة نساء من بنى سعد ، يضرب لونهن إلى السمرة ، ويلوح عليهن أثر إقليمهن الصحى ، حضرن يلتمسن الأطفال عند الأشراف ، فنالت منهن حليمة السعدية شرف إرضاعه .

تقول حليمة : كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شيئاً ، فصيرتني وزوجي في فقر مدقع [؛] فعزمنا على الخروج إلى مكة في رفقة نسوة من بني سعد ، نلتمس جميعاً الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على ضرورات الحياة .

وكانت الأتان التي أركبها من الهزال والضعف حتى خشينا أن تنفق في الطريق ، ولم نتم ليلنا حتى صبينا الذي كان معنا ظل يبكي لما يجده من ألم الجوع ، ولم يكن في ثديي ، ولا في أخلاف الناقة التي يقودها زوجي قطرة من لبن ، نهدئ بها من جوعه . . لقد استولى على اليأس في أثناء الليل ، وتساءلت كيف يمكنني وأنا في تلك الحالة ، الزعم بأن في مقدوري القيام على تنشئة طفل ؟

ووصلنا أخيراً إلى مكة ، وقد سبقنا إليها النسوة ، فأخذن الأطفال ، ماعدا محمداً . كان والده قد مات قبل مولده ، وكانت أسرته قليلة اليسر ، برغم مكانتها العليا بين سادات قريش ، وأبت النسوة الأخريات احتضانه .

وامتنعت أنا وزوجي عن احتضانه للأسباب نفسها ، أعني اليتم وعدم الثراء . غير أني في النهاية خجلت أن أرجع ولم آخذ رضيعاً فأكون — فضلا عن الإخفاق — موضع السخرية ، ثم إني شعرت بعطف متوقد نحو ذلك الطفل البارع الجمال ، الذي قدرت أن هواء مكة الفاسد سيؤذيه .

ملأت العاطفة جوانحي ، وشعرت — يا للمعجزة ! — باللبن يعود إلى ثديي متحفزاً . . . ! فقلت لزوجي :

— والله إني لأجد رغبة ملتهبة في أن آخذ هذا اليتيم ، مهما كان الأمل في الخير الذي يعود علينا من أسرته ضعيفاً .

— لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وهكذا . لم أتمالك نفسى . فأسرعت مهرولة نحو الطفل الوسيم . فوجدته وسنان . فوضعت يدى على صدره اللطيف ، فابتسم . وفتح عينيه اللتين تشعان نوراً . فقبلته بينهما ، وأخذته ورجعت به إلى رجلى ، ثم وضعته فى حجرى ، وألقمته ثديى الأيمن ليتغذى منه بما شاء الله ؛ فوجد فيه — على دهشة منى — ما يشبعه . ثم منحته ثديى الأيسر ، فرفضه ، تاركاً إياه لأخيه من الرضاعة واتبع ذلك دائماً .

وأعجب من هذا أن زوجى قام إلى ناقتنا ليهدئ ثائرة الجوع التى تلتهب بين أحشائه ، فإذا أخلافها حافلة باللبن ، فحلب منها وشرب ، وشربت أنا معه حتى ارتوينا وشبعنا ، وبتنا بخير ليلة ، وما كنا ننام من قبل .

وواصلت حليمة الحديث عن غنمها وكيف كانت المرعى الخصيب ، كان النبات يترعرع لمقدم غنمها ويذبل عقب مرورها مباشرة . « فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته » .

وتواصل حليمة الحديث قائلة : « كان يشب شباباً لايشبه الغلمان ، يبعد عن الأقذار ، لايبكى ولايصرخ . . . أما إذا قلق فى أثناء الليل ولم ينم ، فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر فى إعجاب إلى النجوم ، فيستولى عليه السرور ، حتى إذا شبعت عيناه من هذا المنظر أطبقهما ، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه » .

أقام محمد فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة ويسرع بنموه الهواء النقى ، وبعد السنتين ذهبت به حليمة إلى أمه ، ولكن الأسرة اتفقت على أن يعود مرة أخرى إلى الصحراء خوفاً عليه من وباء كان يجتاح مكة وقتئذ ، فأقام فى البادية نحو سنتين أخريين .

وعندما أصبح محمد فى الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب مع أخيه فى الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً

فى رفق على الأرض ، وشق أحدهما ، وهو جبريل ، صدره ، دون أن يسبب له ألماً ، ثم نزع قلبه وطهره من الحقد والشر اللذين زرعا فى القلوب منذ آدم ، واللذين يدفعان البشر إلى ارتكاب الآثام ، ثم ملأ الملكان قلبه بالمعرفة والنور ، ثم أعاداه إلى مكانه فى صدر الطفل . ويستند القائلون بهذه الرواية إلى حرفية الآيات القائلة : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) .. وإن كان بعض الأئمة يذهبون إلى أن ما يشير إليه القرآن إنما هو عمل روحى بحت ، الغاية منه تطهير هذا القلب ليتلقى الوحى خالصاً ، ويؤدى الرسالة مخاصاً ، ويحتمل عبئها المضنى .

ويذكر المؤرخون أنه كان بين كتفى الطفل « خاتم النبوة » ، وظل هناك طوال حياته دليلا على صدق نبوته. أما الكفار فقد اعتبروه خالا (حسنة أو وحمة) كبير الحجم ، إذ كان فى حجم بيضة الحمامة .

وحينما علمت حليمة وزوجها بقصة الملكين ، شعرا بالخوف على الغلام ، فقد ظنا أن هذين الزائرين من أشرار الجن الذين يجوبون – كما كانوا يعتقدون – الصحراوات الخالية ويوقعون الأذى بالأطفال ، ولذا عادت حليمة بمحمد إلى مكة وأعادته إلى أمه .

ويقول إيرفينج – نقلا عن رواة السيرة – إن محمداً ، بعد أن أعادته حليمة إلى أمه ، ظل فى رعاية والدته حتى السادسة من عمره ، وحينذاك صحبته أمه إلى « يثرب » – المدينة – لزيارة أقاربها من قبيلة عديج ، ولكنها مرضت خلال عودتها إلى مكة ، ثم توفيت عند بلدة « الأبواء » ، وتقع على الطريق بين مكة والمدينة ، ودفنت هناك ، وحرص محمد طوال حياته على زيارة قبرها .

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى « بركة » – وهى أم أيمن – فبعد

أن توفيت آمنة أصبحت بركة لمحمد فى مقام الأم ، فعادت من هذه الرحلة ، وسلمته إلى جده عبد المطلب ، فظل محمد فى رعايته نحو عامين ، حتى إذا شعر عبد المطلب بتقدمه فى السن واقتراب يومه ، نادى أبا طالب — وكان أكبر أولاده — وطلب منه أن يضع محمداً فى رعايته ، وضم أبو طالب محمداً إلى صدره ، وأصبح له كالأب . وظل محمد فى رعاية عمه الذى ورث سدانة الكعبة .

عاد محمد إلى مكة وهو فى الخامسة من عمره ، وقد كان أحب أحفدة عبد المطلب إليه ، فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده ، وماتت أمه بعد حين ، فزاد حب عبد المطلب له . ولما بلغ محمد الثامنة من عمره توفى عبد المطلب — الذى كان فى الثمانين — فكفله عمه أبو طالب الذى أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً .

ولما كان محمد فى الثانية عشرة ذهب مع عمه فى رحلة له إلى الشام ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها محمد مع قافلة تجارية ، وتروى كتب السيرة أنه التقى فى هذه الرحلة براهب يدعى « بحيرى » ، وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة ، وتقول بعض الروايات إن الراهب نصح أهله أن يشددوا ا افظة عليه لئلا يكتشف فيه اليهود أمارات النبوة فيناله منهم أذى .

وفى الشام عرف محمد الكثير : عرف أخبار الروم ، والنصارى وكتبهم ، وسمع عن الفرس وعبادتهم النار ، وحروبهم مع الروم .

وعاد محمد إلى مكة مع عمه ، وكان يخرج إلى الأسواق المجاورة فى عكاظ ، حيث كانت تقام ندوات الشعراء ، وفى مجنة وذى المجاز ، حيث استمع لإنشاد أصحاب المذهبات والمعلقات ، وهى قصائد ألفها شعراء الجاهلية ، وكانوا يكتبونها بماء الذهب على أستار من حرير

ويعلقونها على جدران الكعبة وغيرها ، وكانت أذناه تلتهم البلاغة العربية الأصيلة فى مختلف فنون الشعر ، وكانت بصيرته تعى ما تستسيغ وتلفظ ما لاتراه خليقاً بالإعجاب . واستمع محمد كذلك إلى خطب اليهود والنصارى ، وكان هؤلاء يتحدثون عن التوراة والإنجيل ، ويدعون العرب إلى اعتناق اليهودية والمسيحية على اختلاف مذاهبها ، وكان يزن ذلك كله بميزان قلبه ، فيراه خيراً من الوثنية وعبادة الأصنام التى درجت عليها عشيرته .

وإلى جانب ذلك كله عرف محمد طرق القوافل فى الصحراء وحمل السلاح ، فقد وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفجار ، وهى حرب حدثت بين قريش وكنانة من جانب، وبين قبيلة هوازن من جانب آخر ، وقد سميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، وكان العرب — قبل الإسلام — يمتنعون خلالها عن القتال ، ويعقدون أسواق تجارتهم ، ويحجون عند أصنامهم حول الكعبة ، وهناك خلاف حول دور محمد فى تلك الحرب التى قيل إنها امتدت أربع سنوات ، فهناك من يقولون إنه كان يجمع السهام التى تقع من «هوازن» ويدفعها إلى أعمامه ليستخدموها ضد خصومهم ، وقال آخرون إنه اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . ولعل الحقيقة هى ما ذكره رسول الله بعد سنوات من رسالته ، إذ قال : « قد حضرت حرب الفجار ، (والحرب تؤنث وتذكر) مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

وفى فترة الصبا هذه ظهرت على محمد مظاهر الكمال والرجولة والأمانة ، حتى دعاه أهل مكة « محمداً الأمين » . وفى هذه الفترة انصرف إلى التفكير والتأمل، وساعده على ذلك أنه كان يرعى الغنم ، وقد ذكر رعيه إياها بالفخر فأكثر الأنبياء رعوا الغنم ، وراعى الغنم الموهوب يجد فى الجو الطلق خلال النهار ، وفى صفاء السماء وبزوغ النجوم فى أفلاكها ليلا ،

مواضع لتفكيره وتأمله ، ومما لاشك فيه أن حياة راعى الغنم تستدعى قوة الملاحظة والانتباه واليقظة ، حتى لا تقترب الذئاب ، وحتى لا تضل إحدى أغنامه فى متاهات الصحراء ، فضلا عن أن ذلك التفكير والتأمل صرفاه عن التفكير فى الشهوات الدنيا ، وهكذا ارتفعت كل تصرفات محمد وأعماله عن كل ما يمس لقبه « الأمين » .

وحياة راعى الغنم ، الذى يقضى نهاره وليله فى عمله ، وفى التفكير والتأمل ، لايتيسر لصاحبها غنى ، وهكذا نشأ لايهتم بالمادة ولايعنى بها ، وكان لايحتاج إلا إلى ما يقيم أوده ، وهو القائل : « نحن قوم لانأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع » .

ورأى أبو طالب ، أن يجد لمحمد سبيلا للرزق متسعاً ، فقد ناء بكثرة أولاده ، وإذ بلغه أن خديجة بنت خويلد لها تجارة واسعة — وكانت من بيوت بنى أسد الشرفاء — وأنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام ، سأل ابن أخيه ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين ، إذا كان يحب أن يعمل فى التجارة ، فوافقه ، وتحدث أبو طالب إلى خديجة فوافقت .

وذهب محمد إلى الشام وبرفقته « ميسرة » غلام خديجة ، واستطاع محمد بأمانته ومقدرته ، أن يزيد ربح أموال خديجة . ولما باع ما معه اشترى من تجارة الشام ما رغبت خديجة أن يأتيها به وعاد محمد ليبلغها أخبار رحلته وربح تجارته وما جاء به ، وجاء « ميسرة » مع باقى القافلة فحكى لها عن محمد وخلقه وحسن تصرفه وأمانته ، فزاد إعزازها له ، وكانت فى الأربعين من عمرها ، فاتصلت بصديقة لها وأبدت رغبتها فى الزواج من محمد ، وبوسيلة ما سألت الصديقة محمداً : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به . .

وإذ يسرت له المطلب ، وذكرت له اسم خديجة ، استغرب أن تقبل

الزواج منه، وهي التي سبق لها أن رفضت الطالبين من كبار رجال قريش، فقد كانت تعتقد أنهم يطمعون في مالها. وتم الزواج بحضور عمها عمر بن أسد، وبعض أعمام محمد.

وخلال عقد القرآن خطب أبو طالب، فكان مما قال: «إن محمد ابن عبد الله ابن أخي، لايوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا، وكرماً وعقلا، ومجداً ونبلا، وإن كان المال قل، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة. وله فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي».

زادتُ ثقة الناس في محمد فكانوا يحتكمون إليه في خصوماتهم، وتروى قصة عن فطنة محمد وذكائه بعد أن تهدمت الكعبة نتيجة حريق شب بها، واشترك الناس في إعادة بنائها، وبقى في النهاية وضع الحجر الأسود في مكانه، فقام نزاع عنيف بين القبائل، فقد أرادت كل قبيلة أن تنفرد بهذا الشرف، وأخيراً اتفق زعماء القبائل على تحكيم أول من يدخل من باب الحرم، وأراد الله أن يكون الرسول الكريم هو أول من يدخل، فحكم محمد، فخلع رداءه الخارجي ووضع الحجر الأسود عليه، وأمسك جميع رؤساء القبائل بأطراف الثوب، ورفعوا الحجر وتسلمه محمد منهم ووضعه في مكانه.

وقد حدثت هذه الواقعة بعد زواج محمد وقبل بعثته.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ، إنِّى رَسُولُ اللهِ إليْكُمْ جَمِيعاً ، الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، يُحْيِى ويُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون .)

(الأعراف: ١٥٨)

* * *

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (المائدة : ٨٣)

* * *

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِى الأُمِّىَّ، الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيل)

(الأعراف : ١٥٧)

هذه الخواطر وَهذا الكتابُ

في موكب الذكرى العطرة ، لمولد نبي الرحمة المبعوث إلى الناس كافة ، ونحن في معركة مع أعدائه وأعداء الله ، يلح سؤال :

كيف نحيي المولد النبوي ؟ . .

في يقيني أن إحياء ذكرى المولد النبوي ، لاينبغي أن يقف عند السيرة الزمنية فحسب، وإنما يجب أن يتجاوزها إلى مستوى النفع بالقدوة الحسنة ، والدعوة للاقتداء بالمثل العليا المتجددة في أخلاق وجهاد هذا النبي العظيم . . فيأخذ عنها كل عصر أمام كل حدث ما يواكبه ومايلائمه ، حتى لاتتكرر السيرة العطرة مجملة مكدسة . . فهذه السيرة ليست مجرد سرد تاريخي محبب إلى كل إنسان ، وليس إحياؤها موسم محاولات لرسم شخصية خاتم الأنبياء ، وإنما هي أولا ، وقبل كل شيء أيام وأحداث هزت كيان البشرية ، وأنقذتها من شهوات النفس ومزالق الهوى ، وأخرجت الناس — ذوي الألباب — إلى شريعة الرحمة والعدل والحق والخير والسلام .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

هكذا خاطب الله نبيه ومصطفاه، ولو حاولنا أن نتخذ من هذه الآية الكريمة وحدها موضوع مؤتمر علمي يعقد في ذكرى المولد النبوي ، لوجدنا بين أيدينا مادة فكرية تحتاج في تسجيلها إلى مجلدات ، ولوجدنا في أنفسنا طاقات مشعة تحيي فينا الموات . .

هي الرسالة إذن وهي الرحمة موضوع هذه الرسالة .. رسالة القرآن الذي أنزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آية فآية . . كل آية تنزل في مناسبتها ، ترتبط بالأحداث ، وتربط الأحداث بالآيات . . . حتى نشأ جيل من البشر انفعل بالوحي، فقويت عقيدته،

ونبت في قلبه الإيمان . . شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

هكذا شاءت حكمة الله أن ينزل الوحى مبيناً للأحداث ، لاينفصل عن حياة الناس . . فأحس جيل الرسالة عظمة هذا الدين القيم ، وقد تمثلت فى الكتاب الأعظم منهاجاً وسلوكاً وعملا وحركة حياة .

ثم نأتى نحن اليوم فى مطلع القرن الخامس عشر على مولد سيد البشر . . فنقرأ رسالته ، ونتذاكر حياته ونضاله ، فلا تتجسم فى أذهاننا الأسوة الحسنة ، ولايتوافر لنا الانفعال بالأحداث التى نزل بها القرآن ، وهى متجددة على طول الشهور والأعوام ، ولانجد فى أنفسنا تلك المشاعر التى وجدها المسلمون الأوائل ، فجعلت منهم — وهم بدو الصحراء — قادة الدنيا ومعلمى الناس الحق والخير والحرية . . لماذا ؟ . .

لأن الاحتفال بحياة النبي ،لا يعنى إنشاد السيرة بالنغم العذب ، وإنما يعنى أولا استلهام رسالة النبي وكفاحه فى سبيلها دليلا إلى العمل الإيجابى . . وما رسالة النبي سوى القرآن الكريم القائل فى محكم آياته :

(مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ) .

لقد تناول هذا الكتاب المبين كل حياة الناس فى الدنيا والآخرة ، وقال بلسان من نزلت عليهم هذه الرسالة :

(مَا لِهٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) .

هنا يبرز سؤال : كيف السبيل — مع شواغل الدنيا — إلى تدبر القرآن وفهمه وممارسة اتباعه والرجوع إليه عند كل شدة وأمام كل مشكلة ؟

الجواب أننا إذا لم نستطع أن نعيد ما حدث من أمجاد فى صدر الرسالة ، فلا أقل من أن نلجأ إلى ساحة القرآن ، نلتمس فى آياته نوراً يضىء ظلام أيامنا ، وحلولا لمشاكل عصرنا ، ونركز على فهم الآيات التى تطابق ما يمر بنا من أحداث ، ونبنى تفكيرنا وتدبيرنا على هذا الأساس .

بذلك يتكون الضمير الحى المدرك الذى يعيش الآية المناسبة ، فيزيد إحساسنا بفاعلية الرسالة ، وجلال تلك الآية . . فالقرآن الكريم فى رأيى يتجاوز حلاوة الكلمة ورقة الأسلوب وروعة التعبير وبلاغة المنطق . . إلى التأصيل الموضوعى لكل ما يمكن أن تتعرض له البشرية من أحداث . .

أما عن السيرة والسنة ، ففيهما الترجمة الحية المتجددة لتطبيق الرسالة . . هى السلوك والأخلاق والقيم التى يجب أن نحييها فى ذكرى مولد سيد البشر وكان خلقه القرآن .

ولنأخذ من الرسالة وتطبيقها ما ينفعنا فى حاضرنا ، ليقتدى بنا كل من يأتى بعدنا . .

نحن اليوم نعيش أحداثاً تزلزل أنفسنا . . نعيش أقسى وأصعب حياة عاشها المسلمون . .

لقد تجمع اليهود من فجاج الأرض وأخلاط الشعوب ، لينشئوا دولة باسم إسرائيل على أرض عربية اقتطعت بالسلاح . . ويقيمون فوقها كياناً يعتمد فى بقائه واتساعه على ما يمكن اقتطاعه أيضاً بالسلاح . . وهكذا يصبح وجودهم على حساب ضياع جزء منا نحن العرب . . وإنهم على هذه الصورة تجسيد لحال اللص الذى يدخل البيت سارقاً ، وقد استقر فى نفسه شعور بأنه قاتل أو مقتول !

نحن العرب أمام إسرائيل ، لايمكن أن نتصور أو يتصور أحد أننا نستطيع مسالمتها أومهادنتها ، إلا إذا ارتضينا أن تكون إسرائيل ولايكون العرب .



إذن كيف السبيل إلى الدفاع الشرعى عن النفس؟ . .

نعود إلى الرسالة التى لم تفرط فى شىء . . نعود إلى التركيز على الآيات التى تتصدى لمثل هذا الموقف . . نركز عليها ، ونؤصل تعرفنا على أساسها . بالمثل الأعلى والقدوة المثلى . . حتى نغرس فى جيلنا وفى أبنائنا عقيدة واقعية ، تعرف لكل هدف طريقه ، ولكل داء دواءه ، ولاتستغرقنا الكليات ، ونحن نعيش الحياة يوماً فيوماً ، وحدثاً فحدثاً . ولكل يوم آية ، ولكل حدث آية . .

وقد يكون هذا هو الأساس الذى تقوم به وعليه خطة التربية والتعليم . . وأسلوب التثقيف على جميع المستويات . . ودليل الإعلام فى كل المناسبات . . حتى تصبح هذه القيم أسلوبنا المتميز فى المعارك وفى السياسة ، وفى البناء والتقدم .

نحن اليوم نعيش معركتنا المصيرية ، ولابد أن ننظر إلى إعجاز الرسالة فى مجال الحشد الحقيقى لقوانا العسكرية وقوانا الشعبية . . كل يتحرك من منطلق واحد أساسه التركيز على الهدف . . يصدر عن الآية ، ويقتدى بالأسوة . .

نحن فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا ، وهو تاريخ رسالتنا وعقيدتنا ، لم يعد يشغلنا شاغل عن طرد اللص من ديارنا وتطهير أرضنا من أعدائنا ، أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه وكل العقائد السماوية .

وقد عرض لى فى ذكرى المولد النبوى طول سنوات النكسة العارضة التى وقعت فى عام ١٩٦٧ ، أن أتبين معالم الطريق إلى الخلاص . . فى آى القرآن العظيم الذى لم يمنحنا الله إياه لنحمله كلاماً نحفظه ونردده فقط فى العبادات أو المناسبات ، أو لنجعله تمائم نتبرك بها ونستجلب بها الخيرات ، ولايمكن أن يكون المصحف زينة للمكتبات . .

إننا إذا وعينا آى الذكر الحكيم ، نستطيع أن نجد فيها ونقتبس

منها نوراً يهدى ، وعلاجاً يشفى ، وطاقات تزيل من طريقنا كل الصعاب وكل العقبات .

لقد تجمع اليهود بأسلحتهم فوق أرض العرب ، طبقاً لمخطط صهيونى اعتمدوا فى تنفيذه على الولاء المتنقل لمن يساعدهم . . فمرة كان الولاء الصهيونى لبريطانيا . . ومرة يكون الولاء لأمريكا . . حيث يكون مصدر القوة . . ولايدرى أحد لمن يكون الولاء فى المرة الثالثة وما بعدها . .

إنهم يستدرون عطف الأقوياء بدعوى الظلم الذى وقع على اليهود فى كل العهود . . وخرافة العداء للسامية هى الشرك الذى وقعت فيه دول كبرى ودول صغرى .. وقد أراد اليهود بالترويج لهذه الخرافة أن يتجاوزوا نقطة الضعف التى بدءوا من عندها . . ولاريب فى أنهم تجاوزوها . . لاجدال فى أن الصهيونية قد استطاعت أن تصنع من ضعف اليهود ومسكنتهم قوة تحتل فلسطين . . وصنعت من تشريد اليهود وطناً قومياً لايقنع بما اغتصبته إسرائيل بالعدوان ، وإنما ينظر بمطامعه إلى ما بين النيل والفرات ، وإلى ما وراء ذلك من أرض يريدون الاستيلاء عليها بقوة أعوانهم المضللين .

على هذه القاعدة يجب أن نستشعر الخطر بكل أبعاده . .

وإن حريق المسجد الأقصى ، وهدم القدس ، وتحويل « مسجد إبراهيم فى الخليل » إلى معبد لهم . . لم يكن ذلك وغيره من الجرائم سوى اختبار لوجود الأمة العربية بل الأمة الإسلامية . . اختبار قامت به إسرائيل على استحياء . . مخافة رد الفعل الذى تصوروه .

لكن رد الفعل لم يحدث . .

لأن عهود التخلف التى فرضت على المسلمين من داخلهم ومن خارجهم ، قد أفقدتهم الحمية التى كانت تقتضيهم ألا تمر هذه الجرائم بلا عقاب . . لكنها مرت وقد يمر غيرها بلا عقاب .

لقد أدركت إسرائيل من واقعنا أنها أمام موت حقيقي . . أو على أحسن الفروض أمام استرخاء مطلق . . أو ربما سبات عميق . . أو لعله كل ذلك .

وهذا هو ما أغرى إسرائيل وسوف يغريها بأن تقيم هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . . وعندها ستكون القارعة التي تبعث الموتى وتوقظ النيام الغارقين في الأحلام . . ثم يكون الشعور بالخطر أصلح مناخ لبعث القوة العارمة في أصحاب هذه المقدسات . . وتنبت من جديد شجرة الإيمان التي تصنع المعجزات . . ترتوى بالرسالة وتقتدى بالرسول .

ماذا يقول القرآن الكريم في هذه المحنة التي نعيشها اليوم نحن العرب؟..

ما هو حجم القوة التي نواجه بها هذا الخطر الداهم ؟

في الرسالة دليل العمل . . وفي الرسول مثل القيادة . . وفي جيل الرسالة نموذج المجتمع المؤمن الصادق الذى يحرك بإيمانه الجبال .

من هذا المنطلق يجب أن نتبين معالم الطريق . . إلى مواجهة الخطر بكل أبعاده ، ثم نقوم إلى العمل الذى ينجينا وينجى البشرية من هذا الخطر . .

إن مخطط أعداء الله وأعدائنا قد أصبح أعمالا تجاوزت الكلام والأماني إلى أرض اقتطعوها بالسلاح ، وإلى خرائط للتوسع بالسلاح .

حقيقة أن الخطر الصهيوني يهدد سلام العالم . . ولكنه قائم على أرضنا نحن العرب وفوق صدورنا . . أرض السلام أصبحت قاعدة للحرب ! والقاعدة العدوانية جاثمة على صدورنا نحن العرب ونحن المسلمين . . فكيف ننتزع أنفسنا من براثن هذا الخطر؟ . . .

إن القرآن يهدينا إلى مخطط نواجه به هذا الخطر المخطط . .

وقد يسأل سائل أو أكثر : أمازلنا نفكر في التخطيط . . إننا نريد العاجلة . .

وذلك القول مردود بأن المسألة ليست مسألة زمن للتخطيط والتنفيذ يطول أو يقصر . . ليس هذا هو الأمر . . إن الأمر كل الأمر هو أن تشعر هذه الأمة المعتدى عليها بأن لديها تخطيطاً للنجاة من الأفعى : رأسها وأذنابها . . ونشعر جميعاً بأننا قد تجمعنا على الطريق وبدأنا نسير . . نسير . .

إن شعوب الإسلام اليوم تحس أنها تعيش حياة الضياع . . حتى فقد الناس ثقتهم فى أنفسهم ، وفى وجودهم ، وفى قياداتهم ، وأخشى أن يفقدوا القليل الباقى من إيمانهم .

لقد اتخذت من أيام ذكرى المولد النبوى الشريف ، والأعياد الإسلامية التى توالت بعد النكسة العارضة فى عام ١٩٦٧ ، مجالا للاجتهاد فى الدعوة إلى العمل بالرسالة ، وإلى اتباع الرسول ، جاعلا من حجم الأحداث وثقلها حافزاً إلى دعوة الناس إلى ما يحييهم . .

وكانت سورة « الحشر » فى القرآن الكريم . . هذه السورة وحدها . . هى موضوع خواطرى التى تحدثت بها إلى الناس كلما دعيت إلى الحديث . . .

ومن هذه الخواطر تجمعت فصول هذا الكتاب ، وهى ترتبط بوحدة فكرية تقوم على الاجتهاد فى تقدير الموقف .

ركزت على سورة الحشر ، وليس غيرها ، ففيها نفس الموقف : اليهود أمام الرسالة . . واليهود أمام الرسول . . وفى المدينة المنورة كانت المعارك الأولى . . وفى القدس وما حولها تدور المعارك القائمة . . أمام أهل الرسالة وأمام أتباع الرسول .

فإذا كان لكل مقام مقال ، فمقام المعركة المصيرية مقاله فى هذه السورة الكريمة . .

وإذا نحن اتخذنا — كما اتخذ المسلمون الأوائل — من آيات القرآن

ومن أعمال النبي مبدأ وقدوة . . فبذلك وحده ستكون نتائج الحربين واحدة .
إنني أعيش القرآن مع الأحداث . .

إن فى سورة « الحشر » تجسيماً لموقفنا من نفس الأعداء . . أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود ، وهم أبغض الناس إلى الناس ، ومع ذلك نجد من يساندهم فى أمريكا . . حيث يعيش شعب مسيحى مضلل يقف وراء اليهود وهو لايدرى ما يكنه له اليهود . إنهم يحلبون ذلك الشعب ويستذلونه ويمتصون دماءه ويمزقون مجتمعه ويستحلون أمواله ويستبدون بكل مرافق حياته ، وإذا حدث لأمريكا خراب عاجل فسيكون على أيديهم ، ولسوف يحدث ذلك فى القريب ، وقد تنبأ به جورج وشنطن غداة النصر فى حرب الاستقلال الأمريكى .

إن الشعب الأمريكى يبغض من أعماقه اليهود . . ولكنه ينافقهم . . ولهذا النفاق أصل قديم . . منذ عصر النهضة والثورة الصناعية ونظام البنوك . . وعن طريق نظام البنوك تسللت الأفعى الصهيونية فسيطرت على كثير من الدول .

ولم تصبح الصهيونية كما تدعى عنصراً ضعيفاً يعانى مرارة العداء للسامية ، بل أصبحت قوة مخربة مدمرة أخطر ما فيها أنها حولت كثيراً من الحكومات الواقعة تحت السيطرة المالية إلى أجهزة إدارية تأتمر بأمرهم وتلتزم بحكمهم فنافقهم الشعوب إلى حين . . .

ومهما بلغت قواهم ، فإن أسحلتهم لايمكن أن تهزم قوة الحق . . فكيف نعبئ قوة الحق ؟ . . كيف يكون إيماننا بحتمية النصر ؟ . .

ماذا يقول القرآن الكريم ؟ وماذا فعل النبى العظيم باليهود فى أول الحشر ؟ . .

لقد أتيحت لى فرص التأمل فى الموقفين ، ورأيت النصر فى الحربين ، واسترسل الخاطر بما يحتويه هذا الكتاب ، بل هذه المحاولة

فى اختيار منهج التخطيط للمعركة المصيرية . . تطبيقاً لما أنزل الله فى محكم كتابه ، فإذا كان ثمة تكرار فى الشرح وتشابه فى الفهم بين فصول هذا الكتاب ، فإنما يأتى ذلك عن قصد منى إلى التركيز فى الوعى بجلال الرسالة وعظمة الرسول . . وقد تشابهت الآيات فى القرآن الكريم . زيادة فى التربية والتعليم . وكذلك ينبغى أن نعنى دائماً بالتنبيه المستمر إلى ما يقول القرآن الكريم ، والتنبيه المستمر إلى أعمال النبى القائد ليكون الذكر الحكيم هو الطريق إلى النصر العظيم .

وذلك التخطيط محكم فى رسالتنا المحمدية ، وعلينا نحن تقع مسئولية التطبيق . . ولابد أن تستمر الدعوة حتى تحتشد خير أمة فى أشرف معركة .

وسيجد القراء فى الصفحات التالية من خواطرى فى مولد النبى خلاصة فكرى طوال ثلاثة أعوام مضت ونحن فى المعركة لم نزل . . وما النصر إلا من عند الله .

حسين الشافعى

الفصل الأول

إلى سيدى رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أول الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين .

الحمد لله حمداً يتكافأ مع نعمته ، ويتسامى إلى قدر معونته ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . سبحانك ربى ، بعثته بالهدى ودين الحق ، لتظهره على الدين كله ، بعد أن اصطفيته وأكرمته ؛ وأفضت عليه وعلى أمته من آيات التقدير ، ما لم يتح لنبي قبله أو رسول ، وما لم تتشرف به أمة غير أمته :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أنعم بذكرى النبي العربى ، المبعوث إلى الناس كافة ، فإن للأمة الإسلامية من تكريمه نصيباً ، وإن لنا فى إعلاء ذكره شرفاً عزيزاً .

أنعم بذكرى مولد من قال فيه الحق تبارك وتعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

بعد ذلك كله يقرر الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

نصلى ونسلم عليك سيدى يا رسول الله . منذ بعثك الله هدى ورحمة ، لنتذكر فى كل صلاة أنك الأسوة الحسنة ، تجسدت فى حياتك رسالة الإسلام وأخلاق القرآن . جئت بالدين القيم ؛ ليكون ميثاق الرحمة على الأرض . ودليل عمل من أجل الحق والعدل . . نتمثل فى ذكراك ، وفى دوام الصلاة عليك . عبر حياتك وجهادك ، منذ مولدك إلى انتقالك ، فنجد فى كل خطوة . وعند كل مرحلة مثلا أعلى للحياة الإنسانية .

ونحن بالصلاة الدائمة عليك ، نؤكد أن حياتك يا رسول الله ، كانت معجزتها أنك بشر ، ونحن فى سعينا إلى الاقتداء بك ، أو بالاقتراب منك ، إنما نسعى للاقتداء والاقتراب من أعلى مثل ، وقد جعله الله فى متناول الإيمان والعمل ، لكل مؤمن بالله وبك يا صاحب الخلق العظيم .

سيدى يا رسول الله .

ليست كذكرى مولدك ، مناسبة نحس فيها مدى حاجتنا إليك ، نترسم خطاك ، ونسير على هداك ، ونتأسى بجهادك ، وما تحملت فى سبيل دعوتك ، من إنكار المنكرين ، وسخرية الساخرين ، ونفاق المنافقين ، وتعويق المعوقين ، وعداء الكافرين ، وطغيان الجبارين . . ولكنك يا محمد ، كنت أكبر من هذا كله ، وأقوى من هذا كله ، فحملت الأمانة ، وبلغت الرسالة ، ونصحت الأمة ، ومضيت فى طريق الله ، حتى نصرك الله ، وتركت فينا ما إن تمسكنا به ، فلن نضل بعده أبداً . كتاب الله وسنتك يا رسول الله .

فمن غيرك يا محمد يمكن أن يكون لنا هادياً إلى الله ، ويمكن أن يكون لنا شفيعاً عند الله ؟ . .

إننا حينما نلجأ إلى بابك ، إنما نستوحى سيرتك ، ونستلهم جهادك ، ما يعين أمتك على السير فوق ما يعترضها من تحديات . . وإننا فى سعينا إليك يا رسول الله ، إنما نتلمس فى نورك إشارة أو بشارة ، هى بالنسبة

إلينا القاعدة الوطيدة . وهى مرفأ الأمن والنجاة .

نقف الآن فى رحاب ذكراك ، وكل منا يدعو الله ويتمنى أن يراك فى مجال الرؤيا . . فتكون له البشرى ، ولقلبه السكينة .

لقد تصورت – وأنا أكتب – هذه الرؤيا ، وقد جئت يا رسول الله لتشد من أزرنا ، وتبشرنا بأنك معنا ، وأننا نحارب تحت لوائك . . إن مجرد هذا التصور والتأمل فى معناه ، يجعلنا لاتسعنا الدنيا ثقة وإيماناً بنصر الله . لأننا كما تعلم يا إمام المجاهدين ، نؤمن بأن لاغالب إلا الله ، وندرك أن لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم نذكر فى قلب المعارك قولك لربك فى أشد لحظات الحرج : « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . .

قلت هذا يا رسول الله ، وأنت على قدرك العظيم عند ربك ، ولم يزدك التكريم والتشريف الإلهى إلا خشية منه ، وسعياً إلى مرضاته ، تخاف غضبه ، وترجو رحمته ، بعد أن فقدت الأهل والنصير ، وتنكر لك قومك ، فلم يشغلك شاغل ، ولم ترهبك قوة ، ولم تعد تبالى بشىء سوى رضاء الله عنك . . وأنت المصطفى المختار ، وأنت الرحمة المهداة .

تقبل علينا هذه الذكرى لرابع مرة بعد العدوان ، وإن جاز لنا أن نسمى هذه السنين كما عشناها . فإن الأولى كانت سنة الامتحان ، والثانية كانت سنة الإيمان ، والثالثة سنة البشرى ، والرابعة سنة الجهاد .

وإننا لنجد فى ذكراك يا رسول الله ، فرصة نجدد فيها العهد . ونقدم تقريراً وحساباً نتذاكر فيه ما يمكن أن نلمسه من علامات تبشر بها الأحداث ، ويتضح فيها الأمل ، ويزيد الإيمان بوعد الله : وبشر الصابرين . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين .

أما سنة الامتحان ، فقد شهدت لأعدائنا نصراً عسكرياً فاق كل تقدير وكل توقع . . . كانت تلك السنة فى حقيقتها بما جاءت به من أحداث ، مؤامرة دبرت بليل ، فاستفاد العدو من واقعنا ومن طبيعته

الغادرة .. من كل درس تعلمه .. فهو فى تلك السنة لايكرر عدوان ١٩٥٦ وكان عدواناً ثلاثيا يمكن أن يختلف فيه المعتدون . . ولكنه فى ١٩٦٧ ، كان عدواناً منفرداً فى الظاهر . . . كان العدوان فى عام ١٩٥٦ من وراء ظهر الولايات المتحدة ، ولكنه فى عام ١٩٦٧ كان بتنسيق معها . . كانت هى المخطط والمدبر ، وكانت الممول والمبارك ، بل كانت القاتل والمحرض . . لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ كنيدى الذى يدعون فيه أنهم إلى جانب الحق ، وأنهم يريدون ضمان حدود دول المنطقة ، ولكن عندما تكون النتائج فى جانب إسرائيل ، فسكوت ورضا يفضح التآمر ، ويكشف أبعاد العدوان ، وأن أمريكا هى المحرض وهى القاتل.

وحينما تسير الأمور عكس ما يشتهون ، وتكون النتائج فى غير مصلحة إسرائيل ، تنقلب المساعدات إلى تدخل صريح ، وتصبح المساندة علنية ومفتوحة ، وكأن أمريكا لايكفيها ما تلقاه فى كمبوديا ولاوس وفيتنام .

وفى سنة الامتحان ، اهتزت الأمة العربية من أعماقها ، وغلت فيها دماء العزة . . اهتزت الأمة وتزلزلت ، ولكنها لم تستسلم ولم تركع لغير الله . .

نفضت عنها كل المعوقات ، وانطلقت منها كل الطاقات ، وانبعثت بروحها الأصيلة ، تكشف ذاتها ، وتبحث عن مصادر قوتها ، وتتلمس عناصر وجودها ، فإذا هى — وعلى غير ما ينتظر الأعداء — تلتف حول القائد ، وترفض الهزيمة ، وتؤكد الوحدة الوطنية ، وتصر على مواصلة النضال ، على طريق العزة ، وعلى طريق التحرير ، وعلى طريق النصر .

فحمداً لك يارب ، لقد صدق وعدك .. ونصرت عبدك .. وكان صمودنا فى هذا الامتحان من حيث لم يحتسب العدو ، وأنزلت السكينة على قلوبنا برغم شدة البلاء وقسوة الامتحان .

أما السنة الثانية ، فكانت سنة الإيمان ، بعد أن تأكد الصبر على

الامتحان . . كان ما تحقق فى العام الثانى من أهداف كبيرة ، ومهام ضخمة ، أساسه إيمان لايتزعزع بالله ورسوله ، وإيمان بالشعب وصلابته . . إيمان يدفع صاحبه إلى البذل والجهاد بالمال والنفس . . كان عام الصدق . . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون .

فى ذلك العام الثانى ، أعيد بناء القوات المسلحة ، واستكملت قدرتها على الدفاع ، وتأكد الصمود عسكريًّا ، والصمود اقتصاديًّا ، بالدعم العربى ، وبما قدم الشعب من مرتبات أفراده وتبرعاتهم . . وبما تقدمت به الدول الصديقة من معونات اقتصادية ومعونات عسكرية . . وبما أفاء الله علينا من محاصيل زراعية وافرة ، عوضتنا وساعدت على دعم اقتصادنا . . وكذلك الأمر فى مجال الصناعة ، بدأت مشروعات خطة ٦٠ — ٦٥ تحقق العائد ملموساً ومباركاً . وكذلك مشروعات الخطة الثانية ، وجرى تنفيذها بما يعود على الوطن بالاكتفاء الذاتى ، والاستغناء عن كثير من الاستيراد . .

وقد بدأ بحمد الله سدنا العالى فى أسوان ، يعطى ما أنفق فى بنائه ، خيراً وبركة ، من ماء وكهرباء ، وتوفير طاقات هائلة للتصنيع ، إنارة القرى التى عاشت فى ظلام طويل قدر له أن ينتهى .

فى تلك السنة الثانية ، سنة الإيمان والصدق ، على رغم تكاليف المعركة والتزاماتها وصلت ميزانية الدفاع إلى ٥٥٠ مليون جنيه ، وكانت لاتزيد على ١٦٠ مليون جنيه قبل سنة ١٩٦٧ . . برغم ذلك كله ، لدينا فائض قد يزيد على ٣٠٠ مليون جنيه ، مكننا من الاستمرار فى التنمية لعام ٧٠/٧١ ، والاستمرار فى البناء ، برغم ظروف العدوان وتكاليف الحرب ، لم يتمكن أعداؤنا بحمد الله من القضاء على تجربتنا ، وهى تمثل الأمل والنموذج ، بما حققته وتحققه من أعمال ثورية ضخمة .

فمن كان يتصور أننا نبنى مجمع الحديد والصلب بتكاليف تقرب من تكاليف السد العالى . . ونحن فى قلب المعركة ؟ . .

نعلن ذلك فى ذكرى مولدك يا رسول الله ، عملا بما أنزل عليك :

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . .

فإن المعركة كل لا يتجزأ . . لابد من الصمود الاقتصادى بقدر الصمود العسكرى . . مع التحرك السياسى الواعى ، فى كل اتجاه ، يصحح الصورة التى استغلتها إسرائيل نتيجة انتصارها العسكرى . . ولكن شيئاً فشيئاً أخذت إسرائيل تفقد أرضها فى مجال الإعلام والرأى العام العالمى ، وبدأت تدرك أن الزمن ليس فى مصلحتها ، وأن الأيام تدخر لها ما هو أقسى عليها من انسحابها . . فقد بلغ الأمر بمفكريها حد التنبيه إلى مغبة الأوضاع التى تعيشها إسرائيل تحت ضغط المؤسسة العسكرية . . ومن بين الكتب التى صدرت أخيراً ، كتاب لأحد زعمائها ، يحدد فيه أغراض إسرائيل فى ثلاثة :

١ — إقامة الدولة الصهيونية . . وهذا تم .

٢ — استقطاب يهود العالم ليعيشوا فى إسرائيل . . وهذا لم يتم .

٣ — الانفتاح على العالم العربى والسيطرة الاقتصادية الكاملة عليه . . وهذا لم يتم .

ويضيف كاتبهم إلى ذلك قوله :

« وبعد أن تستدرج إسرائيل فى حرب الاستنزاف التى دعا لها جمال عبد الناصر ، فلن تتمكن إسرائيل من تحقيق هدفها الثانى أو هدفها الثالث ، وهما الأساس لقيام الدولة » .

وينتهى الكاتب الصهيونى من ذلك إلى قوله :

« إن من الأوفق لإسرائيل أن تقبل حتى بحدود تقسيم ١٩٤٨ ؛

لكى تتاح لها الفرصة فى إقامة مجتمع يؤمن بالتعاليم اليهودية ، قبل أن يضيع فى بحر من المناطق التى يسكنها العرب » .

حمداً لك يارب ، فهذا شاهد من أهلها ، يكشف لنا حقيقة أعدائنا ، ونتائج صمودنا وصبرنا وإيماننا بأنك القاهر فوق عبادك .

سيدى يا رسول الله .

إنى إذ أكتب هذا فى ذكرى مولدك ، أشعر أن نجواك ألهمتنا حقائق المعركة التى تخوضها أمتك ، وهى التى كانت وحياً لى عند كتابة الفصل التالى عن « معادلة النصر » . . . عن قوانين ومعادلات الإيمان والعمل فى القرآن الكريم ، وتناولت فيه آيات جهادك ونصرك، والدروس المستفادة من غزواتك ، لنقتدى بها فى معركتنا ، ونجد فيها نوراً يضىء طريقنا ، وأنت ترى وتسمع يارسول الله ، أننا نخوضها . . معارك من أجل السلام ، وليست بهدف التوسع بالعدوان والعنف والإرهاب . . نخوضها معارك ليست فقط للدفاع عن الحياة ، فما أرخصها عندما تكون التضحية فى سبيل حماية العقيدة ، وتحقيق رسالة الرحمة! . .

وكانت السنة الثالثة يا رسول الله هى سنة البشريات . . سنة نقترب فيها من موعد النصر بإذن الله .

وهذه هى السنة الرابعة ، سنة الجهاد،(وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ . .)

سيدى يانبى المرحمة والملحمة . . أستميحك عذراً إذا تمثلت هنا بقول خليفتك البطل عمر بن الخطاب ، عندما وقف يخاطب جند الله فقال : « إن عدوكم يفوقكم عدداً وعدة ، ولاتمتازون عليه إلا بإيمانكم ، فحافظوا على صلواتكم ، إن تركها أخوف عليكم من عدوكم ».

هذا هو منطق خليفتك يا رسول الله ، تعلم على يديك ، وأخذ

عنك ، وعرف أنه بعد أن أعد واستعد ، بكل ما يستطيع ، أن الأمر قبل كل شيء معلق بالإيمان بالله ، ومعلق بالصلة بالله ، وعرف معنى المعادلة القرآنية (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ،وكان مؤمناً بما أنزل على قلبك يا رسول الله: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) .

نعود إلى عام البشريات . . وما أحب الحديث عن البشرى فى مولد النور !

حينما بدأت أعد هذا الكتاب أو ذلك الحساب ، وقعت فى يدى مقالة لكاتب من أنصار الأعداء ، أتيح له أن ينقذ فكره من سجن الإعلام والتضليل الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فرأى جانب الحق فى القضية ، وأعلن رأيه قائلا :

« من المؤسف حقاً أن معظم الأمريكيين يعتقدون أن العرب قوم متواكلون ، وأن الإسلام يعلمهم الاستسلام ، وبالتالى فإن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة ، فى حربهم مع إسرائيل » .

هذه هى الحقيقة التى كتبها الصحفى الأمريكى ستيفن بيلتير ، بعد مجيئه إلى القاهرة ، وبعد استماعه إلى خطاب المغفور له الرئيس القائد جمال عبد الناصر فى عيد أول مايوم ١٩٧٠ ، وهو يعلن باسم الأمة العربية ، حقائق موجهة إلى الشعب الأمريكى ، ثم إلى الرئيس الأمريكى ، لعل الله يهديه إلى قرار يحسم الصراع فى الشرق الأوسط ، أو يتحمل تبعة ما يحدث فى هذه المنطقة ، وقد تبدأ منها الحرب العالمية الثالثة ، إن لم تنسحب إسرائيل دون قيد أو شرط .

والسؤال الآن : كيف يفهم الشعب الأمريكى أن الإسلام يعلمنا

الاستسلام ، وأن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة ، فى حربهم مع إسرائيل .

إن الأعوام التى مضت ، ونحن نحتفل سنويا بمولدك يا رسول الله ، قد سجلت أحداثاً تؤكد أن الأمة العربية — كما يعلن قادتها دائماً — ترفض الاستسلام ، ورفض الاستسلام معناه الاستعداد للقتال ، والاستعداد للتضحيات ، مهما بلغت التضحيات . . وأن الأمة العربية تريد السلام الحقيقى ، ولكنها تعتقد أن السلام يجب أن يبنى على العدل ، وأن تصميمنا على تحرير أرضنا هو أول حق لأى أمة تعرف أن لكرامتها قيمة . وكرامة الأمة من كرامة رسالتها . رسالة الرحمة وهى أعلى مراتب القوة .قوة السلام القائم على العدل .

نعود إلى البشريات المرفوعة إليك يا رسول الله فى ذكرى مولدك . . إنها تعنى أن أمتك على طريقك ، تصبر عند البلاء ، وتثبت عند اللقاء . . وقد قامت ثورة السودان فى الخامس والعشرين من مايو الأسبق تجسيماً لهذه الحقيقة .

قامت فى السودان ثور مؤمنة واعية ، تؤكد للدنيا جميعاً أنها ثورة عربية حرة ، وأنها ثورة اشتراكية ديمقراطية ، وأنها ثورة وحدوية ، وأنها تحشد قوى السودان على جبهات المقاومة لأعداء الأمة العربية .

أيعنى ذلك أن العرب قوم متواكلون ؟ . . أيعنى ذلك أن الإسلام يعلم العرب الاستسلام؟ . .

لقد أتى الله أعداءك يا محمد وأعداءنا ، من حيث لم يحتسبوا ، عندما قالت ثورة الخرطوم : إنى مع المقاتلين فى خط النار .

وكانت البشرى الثانية ضربة أخرى فى صدور الأعداء . . قامت الثورة المعجرة فى ليبيا ، من أرض القواعد الإنجليزية والأمريكية ، التى ضربت منها مصر ، وضرب منها العرب ، فى عدوانى ٥٦ ، ٦٧ . .

جاءت ثورة الفاتح من سبتمبر ٦٩ . وهى ترفع شعار « فلسطين لنا » ، وكانت كلمة السر ليلة الثورة هى « القدس » . . فى الليلة العاشرة بعد إحراق إسرائيل المسجد الأقصى . . وقد حسب الأعداء أنهم يوجهون بذلك أقصى أنواع التحدى لمشاعر العرب والمسلمين جميعاً ، فجاءت ثورة ليبيا ردفعل مباشراً لهذا التحدى ، جاءت لتقول للمحتلين الموالين لأعداء العرب ، ليس لكم مكان فى أرض العرب .

وقالت ثورة ليبيا لثورة السودان : ياجند الله ، موعدنا فى مصر ، لنبنى معاً قواعد الحرية والاشتراكية والوحدة ، على هدى من الله وبصيرة .

أيمكن أن يكون ذلك استسلاماً لإسرائيل التى أحرقت المسجد الأقصى ؟ . . أو استسلاماً لأعوان إسرائيل الذين يمدونها بأسلحة الهدم والحريق والخراب ؟

أستميحك يا رسول الله أن تأذن لى بنظرة إلى حال هذا العدو المغرور بنصره ، المغرور بقوته . . كيف حاله اليوم بعد مضى ثلاثة أعوام على انتصاره المزعوم ؟ . .

يجيب عن ذلك شاهد من أهلها . . جولدمان رئيس المؤتمر الصهيونى بقوله :

« إن الزمن ليس فى مصلحة إسرائيل . بل إنه يعمل ضدها . إن إسرائيل تسير فى طريق خطر . إن الساعات الفاصلة تقترب . من الضرورى أن يعرف الشعب فى إسرائيل أبعاد الحقيقة فيما يحيط به

ومن أبعاد الحقيقة التى يريدها جولد مان ، ما كشفت عنه رئيستهم جولدا مائير ، فى احتفال إسرائيل بالذكرى الثانية والعشرين على قيامها ، عندما قالت :

« إن الحزن والكآبة يخيمان على إسرائيل اليوم . . . إن فرحتنا لم تتم . . إن إسرائيل لم تتمتع بيوم واحد من أيام السلام ، خلال السنوات التى أعقبت حرب يونيو ١٩٦٧ ، لقد كسبنا الحرب فى ستة أيام ،

ولكن السلام لم يتحقق بالنسبة لنا. وفوق ذلك يتضاعف عدد قتلانا فى كل يوم » .

ويضيف قائدهم موشى ديان إلى الصورة إيضاحاً ، فيعلن فى أحد تصريحاته الأخيرة : « أن القوات المصريةالمسلحة قد أخذت زمام المبادأة ، وارتفعت نسبة قتلانا على جبهة القناة ، إلى حد يضعنا فى مواجهة الخطر . . إن هذا الموقف يدعونا إلى أن نقرر فوراً : هل نحارب ، أولا نحارب . . إذا لم نحارب فلن يفكر أحد فى عوننا . ولكننا عندما نحارب سنجد من يساعدنا » . .

ويضيف مندوب اتحاد الصحافة الأمريكية إلى هذه الحقيقة اعترافاً يقول فيه :

«إن مصر قفزت الآن إلى وضع يتيح لها أن تتحدى التفوق الحربى الإسرائيلى على جبهة قناة السويس بصورة لم تحدث منذ حرب يونيو ١٩٦٧ » .

ولست أدرى كيف يتفق هذا المنطق ، والشعب الأمريكى يفهم من خلال الإعلام الصهيونى أن العرب قوم متواكلون ، وأن الإسلام يعلمنا الاستسلام ؟

يجيب عن ذلك سكان مستعمرات الجليل من الإسرائيليين ، وهم يهاجرون منها إلى أى ملجأ يستطيعون الاعتصام به ، من ضربات الثورة الفلسطينية التى توحدت منظماتها . . ولجأت إسرائيل إلى استدعاء الاحتياطى من قواتها للعمل فى جبهة القناة ، ولكنها دفعت به إلى منطقة أريحا ، وإلى جنوبى لبنان . . وفى أريحا كانت فى انتظارهم عملية بحر البقر التى قامت بها « العاصفة » من جنود « فتح » . . انتقاماً للغارة الإسرائيلية الأمريكية على مدرسة للأطفال فى بحر البقر ، وكانت خسائر العدو فى هذه العملية التى تمت ظهر الجمعة ٩ مايو عام ١٩٧٠

فوق ما كانوا يتصورون .

وأعلن ممثل منظمة فتح حينذاك ، أن المقاتلين الفلسطينيين أقدر ما يكونون على نسف مدرسة لأطفال العدو ، ولكنهم رفضوا هذا النوع من الانتقام ، وحرصوا على أن تكون ضرباتهم موجهة إلى الجيش الذى لايقهر ، وليس للأطفال الصغار ، لكى يعلموا الفرق بيننا وبينهم !

وأنذرت منظمة فتح إسرائيل من تكرار العدوان على المدنيين العرب فى أى مكان ، ولكن إسرائيل ركبت رأسها كعادتها ، وهاجمت جنوبى لبنان ، فتجسدت أمام العالم حقيقة تؤكد ما أعلنه قادة الأعداء وهو : أن إسرائيل الآن فى مواجهة الخطر .

ونتحدث بنعمة الله علينا فى معركتك يا رسول الله ، بما لقيه اللواء الإسرائيلى المدرع ، من نيران الثورة الفلسطينية ، المؤيدة بالطيران السورى ، وعرفت وحدة النضال الفلسطينى طريقها إلى العودة — لكى تقيم دولة فلسطين الديمقراطية — دولة تتعايش فيها كل الأديان ، وليست مباءة للعدوان ، يهرب منها حتى اليهود ، ليستطيعوا أداء طقوسهم الدينية :

أما كيف يحدث هذا ، فالجواب ينطق به شاهد من أهلها أيضاً .. الحاخام « عمرام بلوى » ، وهو يتزعم ، باسم عدد من الحاخامات ، الدعوة إلى الهجرة اليهودية من إسرائيل ، إلى أى أرض فيها سلام ، حيث يستطيعون أداء طقوسهم الدينية . وهو يجهر بقوله : « لقد حول الصهاينة إسرائيل إلى دولة للفسق والفجور والفساد ، وإنهم باستيلائهم على كافة المصادر الاقتصادية والإعلام ، يستطيعون دفع شعب إسرائيل إلى الكفر والخطيئة ، مع التعرض لحرب دائمة مع العرب . ويا ليتهم اكتفوا بذلك ، بل زادوا الموقف تدهوراً حينما أعلنوا أنهم مستعدون لمحاربة الاتحاد السوفييتى حتى آخر إسرائيلى ، من أجل جلب اليهود السوفييت إلى السجن المسمى إسرائيل ومن أجل منع الاتحاد السوفييتى من التأييد

الكامل للعرب » .

نشرت هذا صحيفة معاريف الإسرائيلية ، وإلى جواره أنباء مستعمرات الجليل ، وموشى ديان يصيح فى سكانها اليهود ألا يهاجروا من مساكنهم ، وهم لايكترثون بما يقول ، ويعلن حكام هذه المستعمرات الأسف لأنهم لم يستطيعوا الاحتفال بذكرى قيام إسرائيل ، لأن الناس كانوا يشيعون جنازات القتلى على امتداد يوم الاحتفال !

وهكذا تغيرت فجأة لهجة التفاخر المتغطرس بجيش إسرائيل الذى لايقهر . . لتبدأ نغمة حزينة باكية شاكية ، من الجراح العميقة التى سببتها عمليات جبهة القناة ، ولم تحسب أنها ستلاقى مثل ذلك على الجبهات الأخرى .

ويرى المعلقون جانباً آخر من الصورة ، عندما يرجحون أن هجمات العاصفة على مستعمرات الجليل ، كانت السبب الظاهر للغارة الإسرائيلية الفاشلة على جنوبى لبنان ، وكان السبب الخفى ، هو نجاح الندوة المسيحية العالمية التى عقدت فى بيروت ، عندما قررت هذه الندوة بالإجماع عدم شرعية دولة إسرائيل ، ووصفتها بأنها دولة قامت على أساس الأمر الواقع ، وانتهاك الحقوق الدولية فى الخارج ، وانتهاك حقوق الإنسان فى الداخل ، وأعلنت الندوة أن حكومة إسرائيل قائمة على أيديولوجية سياسية عنصرية توسعية بالعدوان . إن الوجدان المسيحى لايمكن أن يقبل مثل هذا الظلم والإرهاب وهضم الحق الإنسانى . وقررت الندوة المسيحية العالمية من أجل فلسطين . إنشاء لجان وطنية مسيحية فى كل بلاد العالم ، لشرح قضية فلسطين العربية ، وعقد مؤتمر مسيحى دولى من أجل فلسطين المقدسة فى كل الأديان .

ويرتفع صراخ إسرائيل بلسان رئيستها « جولدا مائير » فى تصريحها القائل : « إذا لم تهب أمريكا لمساعدة إسرائيل ، فسيذكر لها التاريخ

أنها كانت صاحبة الفضل الأول فى القضاء على إسرائيل » .

ولكن صراخاً أعلى من صراخ إسرائيل قد تردد فى آذان أمريكا . . ثورة الغضب التى اجتاحت الجامعات الأمريكية ، ضد الحرب فى كمبوديا ، وضد تصاعد الحرب فى فيتنام . . لقد أضرب الشباب عن التعليم وزحف إلى البيت الأبيض من أنحاء الولايات المتحدة ، واستنجد الرئيس نيكسون بحكام الولايات الخمسين ، وتحرك الجيش الأمريكى لمواجهة مظاهرات الطلبة ، وسقط منهم فيما نعلم ثمانية قتلى ، فأعلن الشباب الأمريكى مواصلة الإضراب ، ودعوة العمال فى المصانع والمتاجر إلى شل الاقتصاد الأمريكى ، بمقاطعة الشركات التى تخدم المذبحة التى أنشأتها الحكومة للشباب الأمريكى فى الهند الصينية ، ويستقيل الوزير المسئول عن الاتصال بالجامعات ، ويبلغ وزير الداخلية الأمريكية الرئيس نيكسون أن الحكومة تساهم فى نشر حالة من الفوضى فى البلاد ، بتجاهلها مشاعر الشباب الأمريكى الذى تسوده موجة من خيبة الأمل . . وتنتقل غضبة الشباب من أمريكا إلى إنجلترا وإلى فرنسا ، وإلى السويد ، وإلى ألمانيا الغربية ، وإلى أستراليا ، وإلى كل البلاد المتحالفة مع أمريكا ، والتى يحس شبابها بنفس إحساس الشباب الأمريكى ، ضد الحرب فى كمبوديا ، وفى فيتنام ، وفى الشرق الأوسط.

وفى وسط هذه الأعاصير التى تزلزل الكيان الأمريكى بسبب سياسة حكومته العدوانية ، كشف قائد أمتنا العربية أمام الشعب الأمريكى حقائق كان يجهلها عن الصراع العربى الإسرائيلى ، وجه الرئيس الراحل النداء الأخير للسلام إلى الرئيس الأمريكى ، أن يأمر إسرائيل بالانسحاب ، أو يكف عن الدعم العسكرى للعدوان على الأمة العربية ، أو يكون من حق هذه الأمة أن تتخذ الموقف الملائم ضد العدوان وضد من يساندون العدوان .

سيدى يا رسول الله .

إننا يجب أن نحاسب أنفسنا أمامك ، فى ذكرى مولدك ، عما قمنا به من واجب يقابل حق الانتساب إليك .

فإذا تجلت نعمة الله علينا بالتفوق العسكرى الذى يتحدى قوة أعدائنا ، وباتحاد منظمات الثورة الفلسطينية ، وبصلابة جبهاتنا ، وبقيام الثورة فى السودان ، وقيام الثورة فى ليبيا ، وبالإصرار والتصميم على تحرير أرضنا شبراً شبراً ، فقد زاد الله فى عطائنا ، بما آلت إليه أحوال أعدائنا ، وفتحت أبواب النصر أمامنا ، وتضاعف عون أصدقائنا لنا من أجل تحرير الأرض ومن أجل السلام .

أما المساعدات الأمريكية لإسرائيل فهى على حد تعبير صحفى أمريكى حر : تفيد العرب بطريقة غير مباشرة ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تمر بصعوبات اقتصادية شديدة ، وهناك أعداد متزايدة من الأمريكيين يطردون من أعمالهم ، ويتعرضون للبطالة ، ولايسعدهم أبداً أن تتدفق ملايين الدولارات على إسرائيل ، فى حين تحفى أقدامهم للحصول على لقمة العيش .

سيدى يا رسول الله .

إننا لانحصى ثناء على الله ، فنحن على الطريق إلى نصر الله ، وهو يتمثل فى اقتدائنا بك ، فلا نخوض الحرب من أجل الحرب ، ولكن حفاظاً على المبادئ والقيم ، ومن خلال العمل وفق ما أنزل إليك ، دفاعاً عن النفس وعن الأرض وعن رسالة أمتنا . . والصهيونية تحاربنا لتثبيت ما اغتصبت من أرضنا . . وسبيلنا هو سبيلك يا رسول الله فى معركة المصير .

إننا لانتعجل النتائج . ولكننا نؤدى الواجب نحو النفس ، والعقيدة ، وحق الحياة ، ملتزمين فى ذلك بالصبر والصلاة — صبر على الجهاد حتى النصر ، وصلاة تلتقى فيها الصلة بالله وأتباع رسول الله . . صلاة نستمد منها الأمل

والرجاء ، فى أزمة وصفها قائد هذه الأمة الراحل بأنها أزمة لم تواجه أمة فى عصرنا الحديث ، وأنها أزمة الضمير الإنسانى كله . هذا الضمير الغافل عنه أننا أمة ذات رسالة إنسانية ، وهذه الرسالة تفرض علينا أن نقتدى برسولنا ، وأن ننظر فى قرآننا ، فنجد دليل العمل فى معركة المصير ملخصاً فى خمس نقاط :

الأولى فى الإيمان بنصر الله . . وعلى هؤلاء الأعداء بالذات ، تأكيداً وتجديداً لما حدث فى صدر الرسالة ، عندما أبلغك الأمين جبريل قول الله تعالى :

(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) .

والتاريخ يعيد نفسه الآن ، ليخرجوا من الأرض التى اغتصبوها وأقاموا عليها دولة الأمر الواقع ، بالتآمر الدولى ، وبالعنف الإرهابى .

فقد أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا : احتلوا فلسطين كلها ، فحولوا شعب اللاجئين إلى فرق للفدائيين ، تعرف طريقها إلى الموت العزيز فى سبيل العودة ، وليس الموت فى سبيل حفنة دقيق من وكالة الغوث . . وبعد عشرين عاماً من النكبة ، ينشق بطن الأرض عن قوة عارمة ، فى الشعب الفلسطينى الثائر ، وقد حسب أعداؤنا أنهم حكموا على هذا الشعب بالفناء ، فإذا هو يسقيهم اليوم الكأس التى ملأوها له .

إننا فى عيد ميلادك يا رسول الله ، نسأل الذى أنفسنا بيده ، أن يزيد الثورة الفلسطينية إيماناً وعزماً ونصراً من عندك أنت يا ناصر المظلوم . .

ونحمدك يارب بقدر عظمة ذاتك ، على أن قواتنا المسلحة قد أخذت

بزمام المبادأة فى جبهة القناة ، وتجسمت فيهم إرادة الله ، تأتى أعداءنا من حيث لم يحتسبوا.

وقذف فى قلوبهم الرعب ، واسألوا القوات العابرة للقناة ، واسألوا القوات المتمركزة فى القناة ، واسألوا قاذفاتنا الجوية ، واسألوا قواتنا البحرية ، ماذا صنعت قبل وقف إطلاق النيران بذلك الجيش الذى لايقهر ، كما تقول دعاياتهم ، والحقيقة أن هذا الجيش قد تعود الهرب من المعارك ، والفرار من نار سيناء ، لينضم الجنود إلى الشباب الإسرائيلى الهاتف بالنداء : لانريد الحرب . . . لانريد الموت فى جبهة سيناء.

صلوات الله وسلامه عليك يا من قلت فى حديثك الشريف : « إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً فإنهم خير أجناد الأرض» .

إنهم يؤكدون الآن عملياً صدق هذا الحديث ، ويوم تسجل البطولات المصرية فى هذه المعركة الضارية ، ستقوم الأدلة القاطعة على أنهم حقاً خير أجناد الأرض . . إليهم فى عيدك يا رسول الله نتجه بقلوبنا ، فنجدك هناك يداً لله تأتى أعداءه وأعداءنا من حيث لم يحتسبوا ، فلم تغنهم أسطورة التكنولوجيا ، ولا طائرات الفانتوم ، ولا القوات المرتزقة ، ولا الحصون المنيعة ، لأن صيحة « الله أكبر» من جند مصر تقذف الرعب فى قلوبهم ،ونحن نذكر كيف مات منهم جنود بالسكة القلبية أمام تكبيرة الفدائيين ، فنذكريا رسول الله معنى حديثك :« لقد نصرت بالرعب على مسيرة شهر » .

النقطة الثانية : تبدو أمامنا فى الرؤية الواضحة أن الذين يساندون الصهيونية يكرهونها فى أعماقهم، ولكنه نفاق محترفى الحكم والاستغلال، وزلفى الحالمين باستبعاد البشرية بمذهب صهيون . . إن رسالتنا تفرض علينا مواجهتهم فى كل مكان من الأرض . . ونحن على يقين من أنهم أسرع الناس إلى التخلى عن هذا النفاق، مصداقاً لما أنزل عليك يا رسول الله :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) .

ذلكم هو أصدق تعبير عن سياسة أمريكا اليوم فى مساندة إسرائيل . . إن الشعب الأمريكى اليوم قد بدأ يدرك أن نفاق حكومته للصهيونية قد أفقده الاحترام أمام كل شعب وكل إنسان . . وتفقد أمريكا فى نفس الوقت أغلى ما يمكن أن يحققه التقدم الحضارى وهو محبة الشعوب وصداقة الإنسان للإنسان . . إن أمريكا تزرع لنفسها أشواك الحقد والكراهية فى كل مكان . . بسبب ارتباطها بعجلة صهيون . . . وعندما نستطيع بالإعلام المخطط المتقدم أن نصل بالحقيقة إلى المجتمع الأمريكى ، فلن يخرج فرد منه مع إسرائيل ، ولن يقاتل معها أحد ، لأن الهاربين من الميدان لن يعاونهم أحد ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً .

النقطة الثالثة : هى متطلبات المعركة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) .

ونشهدك يا رسول الله على أننا قد أعددنا كل ما نستطيع من قوة، وأنها قوة نرهب بها أعداء الله وأعداءك ، فليست العبرة فى الحرب المشروعة بما يراق فيها من دماء ، ولكن العبرة بما تقذف به القوة من رعب فى نفوس الأعداء . . . هذه هى عدتنا ، وهذا هو سلاحنا ، لأننا لانخوض الحرب عدواناً ، ولكنها تفرض علينا فرضاً ، ثم نخوضها دفاعاً عن الأرض والمبدأ والعقيدة ..

لذلك أتى الله أعداءنا من حيث لم يحتسبوا . .

جمع من حولنا الأمة العربية جميعاً ، لتدرك الخطر الداهم عليها وعلى البشرية ، فتقوم إلى أداء واجبها ، بقدر ماتتحمل أو تطيق حسب الخطوط الأمامية فى جبهات القتال ، أن تستشعر هذه المساندة ، ليس فقط بالرأى والتأييد ، ولكن بالدعم الاقتصادى والعسكرى ، وتتحد كلمة الأمة الواحدة على تحرير فلسطين ، بعد أن تفرقت يوم احتلال فلسطين . . .

أبداً لن تذل هذه الأمة أو تهون ، وهى تحمل فى المعركة شعار القائد الراحل : « إما أن تكون هذه الأمة أولا تكون » .

وكذلك أتى الله أعداء هذه الأمة من حيث لم يحتسبوا فى مجال إعدادنا للقوة ، فإذا بأنصار حقوق الإنسان وحرية الشعوب فى الاتحاد السوفييتى والجبهة الاشتراكية ، يقدمون للعرب أوفر وأحدث السلاح ، لاستخدامه فى سبيل الحق المشروع . . حق تحرير الأرض . . وحق الدفاع عن النفس والأرض والمبدأ والعقيدة .

إن إيمان هذه الشعوب بكرامة الإنسان ، يا نبى الإنسانية ، كان بجوارنا فى المعركة ، قوة أفزعت أعداء الله وأعداء الإنسانية . ومن عجب أن تنطلق أصوات من بطن الحكومة الأمريكية ، لتملأ الدنيا ضجة وعويلا حول الدعم السوفييتى للعرب ، ولاتذكر الحكومة الأمريكية وهى



تتحدث بلسان إسرائيل أن الدعم السوفييتي . ليس من أجل الحرب ، بل من أجل السلام ، وليس من أجل العرب فقط ، بل من أجل مواجهة الخطر الصهيوني على الشعوب الاشتراكية ، وعلى حرية كل إنسان .

إن ذلك موقف لايمكن أن ينساه العرب ، فالوفاء فى أخلاق العرب جوهر أصيل ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تتخذ من أرضنا قواعد للعدوان على أصدقاء ساعدونا على محو قواعد العدوان . فليس من الإسلام أن نجحد فضل العاملين من أجل السلام .

النقطة الرابعة فى دليل عملنا ضد الخطر الصهيونى هى : تعريف الشعوب المخدوعة فى إسرائيل بأى مجتمع يساندون .. مجتمع مملوء بالمناقضات يمزقه طول سنوات الحصار فى الدائرة العربية ، وتفرقه فى داخله طبقات يهدم بعضها بعضاً . . بأسهم بينهم شديد . . نظامهم سادة وعبيد . . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . .

أما أنتم يا جند الله فى المعركة ، فأنتم أمام أعداء لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . . . إنهم أجبن من لقائكم فى معارك المواجهة على الأرض المكشوفة . . ولأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، وآية ذلك حوادث الفرار التى يحققها أطباء إسرائيل النفسيون فى جبهة سيناء ، وهم لايدركون أنها طبيعة الأشياء ، عندما يرى جنود العدو أنفسهم فى قبضة خير أجناد الأرض ، تؤيدهم أمة قضى الله أن تكون أمة واحدة ، ولن تستطيع قوة أن تفرض فيها غير حكم الله ، وهو القاهر فوق عباده .

النقطة الخامسة : أن هذه الأمة التى تحمل أعباء الدفاع عن السلام القائم على العدل ، تعرف طريقها أولا إلى الدفاع عن وجودها ، والدفاع عن رسالتها . فلابد للقوة من عقيدة تدفعها ولابد للعقيدة من قوة تحميها .

إننا لنؤمن إيماناً راسخاً بأن إسرائيل وعدوانها المتواصل علينا . يرسل النابالم من الفانتوم الأمريكية على المدن والقرى والمصانع والمدارس والمستشفيات والمساجد ،والكنائس ، كل ذلك فى ميزان الحق ليس شرا كله ،، فهو من ناحية أهم وأعظم ، أكبر دفع لهذه الأمة إلى النظر فى رسالتها ، فتجد القتال ركناً من أركان العقيدة : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ) وتجد النصر حقا للمؤمنين على الله ، وتجدك يا رسول الله نورها وهداها إلى قوله تعالى : (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ . .) إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، فيما تأتى به الأحداث من بشريات .

سيدى يا رسول الله :

إن كل مسلم وكل مؤمن يذوق اليوم طعم السعادة والأمل فى نصر الله ، عندما تمتد البصيرة إلى الاحتفال بمولدك سيدى عبر القارات والمحيطات . . . وإننى لأجدها فرصة سانحة ، لكى أرفع فى هذه الكلمات ، إلى إلى كل مسلم فى العالم ، تهنئة من الجمهورية العربية المتحدة ، تهنئة شعبها وقادته ، بذكرى مولد النبى العربى المبعوث إلى الناس كافة . . داعياً الله أن يقبل موعد الذكرى القادمة ، على مولد رسول الرحمة ، ويكون موعدنا مع النصر بإذن الله .

الفصل الثانى

معادلة النصر

الحمد لله الذى وفقنا للصمود ، معتصمين بحبل الله ، فهو الأمل وهو الرجاء ، لاملجأ منه إلا إليه . . سبحانه يخاطبنا بقوله :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) .

قانون إلهى ، فى تعبير الحكيم الخبير عن مقومات الصمود ، أعلى ما يكون الصمود . . بالصبر على الشدائد . . والصبر على تحمل المكاره . . والصبر على الحرمان . . والصبر على الجهاد ضد النفس . . والصبر على تبجح الأعداء . . والصبر على اليائسين . . والصبر على دعاة الهزيمة . . والصبر على أوهام الضعفاء .

ألا إن الصبر نصف الإيمان ، ثم تكمله الصلاة . . والصلاة صلة بالله . . واهب الحياة . . واهب النصر . . الصلاة ضمان للأمل . . الصلاة وثيقة الرجاء .

إننا قد نصبر . . فإذا لم يكن صبرنا مقترناً بالصلاة . . فهو صبر على المذلة . . صبر على الهوان .

الصلاة والصبر معاً ، ركيزة العزة بأسمى معانيها . . العزة التى لا تخضع إلا لله ، والعزة المستمدة من عزته سبحانه ، وبأمر من عنده :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أصلى وأسلم وأبارك عليك سيدى صاحب هذا اليوم ، نبينا العربى المرسل رحمة للعالمين ، بعثه الله ليكمل به الدين . . وليتم به النعمة :

(اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

رسالة كاملة ، أبلغها الأمين ، فى جيل كامل من الزمان . . وأمانة عقلية ، أداها محمد لكل إنسان، ما بقى على هذه الأرض حياة . . ليستطيع من يأتى بعده ، أن يحمل أمانته ، ويتأسى بسيرته ، ويسير على مهاجه . . وإذا قلت الرسالة الكاملة ، والأمانة العقلية ، فإنما أعنى أن القرآن هو الرسالة ، والقرآن هو الأمانة . . بغير خوارق ولامعجزات مادية . . بل كان منطق الحكيم العليم القاهر فوق عباده . . أنزله بالحق . . آيات بينات ، فى قوانين ومعادلات .

ونحن فى منطق العصر ، قد يستهوينا التأمل فى أى قانون وضعى كالقانون القائل : لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه . . ثم نرتب على هذا القانون استنتاجات ومسائل ومشاكل لاحصر لها ولاعد . . وإذا نحن نظرنا إلى ما بين أيدينا ، وجدنا الإعجاز الحقيق الشامل فى القرآن العظيم .

إنه بمنطق العلم المتقدم ، سلسلة من القوانين والمعادلات ، تتحقق فيها النتائج ، وتلمع فى مقدماتها الأسباب .

ولننظر ما يقول القرآن فى مثل موقفنا اليوم . . إنه سبحانه عندما يقرر فى قول فصل :

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

إنه قانون الحركة والدفع . . نلمسه فى الماء الراكد حين يفسد ، والماء

الجارى وهو يصفو ويتحرك ويتجدد ، كذلك الأفراد والأمم .

وحينما يقنن الحكيم العادل :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) معادلة صريحة . ترتبط النتيجة فيها بأسبابها .

أو حينما يصفنا ويكرمنا بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فهى . . ليس تفضيلا عنصرياً يعتمد على النسب أو الحسب أو المال أو نوع الدم أو الجنس، ولكنها معادلة ترتبط أيضاً بالسبب والنتيجة .

إنه جلت حكمته يدعونا إلى الأسباب ، ويوضح لنا النتائج . . إنه يريد أن توضع هذه القوانين وهذه المعادلات موضع التنفيذ من أصحاب اليقين . . أو موضع الاختبار من أهل الشك والريبة. . فلهم الحق فى أن يتشككوا حتى يتبينوا ، وأن يرتابوا حتى يؤمنوا . .

ولكنا نريد النصر . . دون أن نراجع المعادلة . . دون أن نكتشف فى أنفسنا متطلبات النصر .

نريد أن نكون خير أمة ، دون أن نلتزم بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .

وقس على ذلك ما احتواه الكتاب الأعظم ، من قوانين ومعادلات، لاتقبل الشك ، ولايأتيها الباطل . . شأن كل قانون يثبت بالتجربة ، ومعادلات تجسمت فى التطبيق أربعة عشر قرناً : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ

آيَاتُهُ) . (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) . (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً) .

أسباب محسوبة . ونتائج مؤكدة . . يجب أن يوضحها ويبلغها الذين يتصدون للدعوة والخطابة . . فنحن عندما نسمع من يقول : إننا لمنتصرون . . محال أن ينتصر اليهود على المسلمين . . لابد أن يتحقق وعد الله . . عندما يقال هذا دون توضيح الأسباب ، يكون هذا كلاماً أجوف . . ضرره أكثر من نفعه . . بل إنه قد يصيب القوم بالتخاذل ، وقد يضرب عليهم الغفلة ، ويقعد بهم مع القاعدين .

حاشا لله أن يدعو إلى ذلك . . وهنا تتضح المسئولية فى إعلان الالتزام والتكاليف ، قبل أن نمنى الناس بالوعود والآمال .

بذلك يكون للقانون الإلهى منطقه الخالد المتجدد ، وأثره الفعال فى إحياء الأمة . . فنحن فى موقف الحشد ، أحوج ما نكون إلى جلاء البصيرة ، حتى نرى أبعاد المعركة ، ويعرف كل فرد وكل مسئول ، أن نصر الله وقف على من ينصره . وأن خير الأمم ، مرهون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله .

إذا كنا من أصحاب اليقين . . يكفينا أن نعمل . . ولينتظر المتشككون النتائج . . . إنهم سيرون الإعجاز الذى يقلب شكهم إلى يقين .

وإنى إذ عكفت على الكتابة فى هذه المناسبة العظيمة ، تذكرت يوم دعيت لأتكلم فى مناسبة عظيمة سابقة ، هى الاحتفال بمضى أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن ، فقد انتابتنى يومها رهبة بلغت منى درجة الخشية ، فى لقاء عام أتحدث فيه عن القرآن . . . وإنى لأحس الآن الإحساس نفسه ، فالحديث عن مولد النبى المصطفى ، صاحب الدعوة ، ورسول الرحمة ، يملؤنى كذلك خشية ورهبة . . لكنها

خشية طيبة ، ورهبة محببة ، فهى فى هذه الأيام . . مطلوبة ومرغوبة . . فكلما اشتد الأمر على المسلم . . هرع إلى سيرة هذا الرسول العظيم ، فيجد عندها المنطلق إلى الأمل ، والمنطلق إلى الرجاء . .

وإننا حينما نتذكر سقوط القدس فى أيدى أعداء الله ، ونحن نحتفل بمولد النبي ، يعتصر قلوبنا الألم ، لأن اقتحام مسرى النبي ، سيظل يؤرق كل مسلم ، وكل صاحب عقيدة سماوية ، حتى تعود القدس — كما أرادها الله — لمن يعرفون لكل دين قدسيته ، ولكل عقيدة حرمتها ، ولكل نبي كرامته ، فإيمان المسلم لايصح بغير الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . . لانفرق بين أحد من رسله . . من أجل هذا كان المسلمون أبر الناس بالقدس . . وأحفظ الناس للقدس . . وأحق الناس بالقدس .

على طول التاريخ ، وعبر القرون ، وجد المسيحي واليهودى فيها الأمن والأمانة والأمان . . لأن مفاتيح القدس كانت بأيدى المؤمنين بكل دين سماوى . . كانت بأيدى المسلمين ، ودينهم دين السلام ، فعاش السلام فى أرض السلام .

أما عندما يتحكم فى القدس ، من لايؤمنون إلا بالصهيونية ديناً ، وبأرض المعاد — كما يدعون — منطلقاً للتوسع والعدوان وسفك الدماء فكيف يمكن أن يستقر أمن أو يكون سلام ؟ . .

إن القدس لم تسقط فى عام ١٩٦٧ ، بل سقطت فى عام ١٩١٧ ، حين دخلتها القوات البريطانية وقال «الجنرال اللنبي» قائدهم المعروف كلمته المشهورة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

إن هذا القائد لم يكن صادقاً فيما ادعى ، فالحق أن الحروب الصليبية لم تنته فى ذلك الوقت ، بل سقط عنها القناع . . وانكشفت حقيقتها المختفية وراء الصليب . . وعرف من لم يعرف أنها كانت حرباً

استعمارية ذات مطامع احتكارية . غايتها استنزاف خيرات الشعوب وخامات الشرق . . والدليل قائم فى أن تلك الحروب قد فتحت الطريق إلى المؤامرة الكبرى على فلسطين ، بإقامة وطن لليهود ، ثمناً للذهب الذى مولوا به الحرب العالمية الأولى ، وكل حرب قامت بعدها . . كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله .

قد يحسب البعض أن تواطؤ الاستعمار مع الصهيونية ، على احتلال فلسطين ، وعدوانهم المتواصل على العرب ، استعداداً لتنفيذ مخططهم : من الفرات إلى النيل — قد يحسب البعض أن ذلك هو قمة التحدى للعالم العربى والعالم الإسلامى . . حينما يقتحمون عليه أرضه ، ويقيمون فى القدس وعلى أرض السلام معسكراً إسرائيليًّا يصبون فيه قواهم وأسلحتهم . . وهم يظنون أنهم بذلك يدقون المسمار الأخير فى الكيان العربى الإسلامى ، فيفصلون مشرقه عن مغربه ، ويمزقون ذلك النسيج المتكامل ، على الخط العريض ، من باندونج إلى الدار البيضاء . . لايتصور هؤلاء لحظة أنهم مسخرون لذلك ، من أجل غاية عظمى ، وغرض أسمى . . لا يتصورون أن إرادة الله تستخدمهم لدفع هذه الأمة ، لكى تنهض من غفلتها ، وتنبعث من مرقدها ، وتقوم لتؤدى رسالتها من جديد ، تنفيذاً للقانون الإلهى ، والمعادلة الحكيمة :

(ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

مسخرون ورب الكعبة ، لدفع الأمة المحمدية ، إلى مركزها الذى قدره الله ، وإلى مكانها الذى اختاره الله ، فقد بلغ رد الفعل بالظلم الدولى أقصاه ، وانتهكت الصهيونية وأعوانها كل الحرمات ، وداسوا كل المقدسات . . ولايمكن أن يحدث هذا دون أن يتجلى عدل الله . . فنجد على الطرف المقابل من المعادلة هذا السؤال :

من ذا الذى كان يتخيل أن يقوم شعب فلسطين ، لهباً من تحت الرماد فى ثورة تتحدى كل مقاييس العقل ؟

سبحان من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . .

من كان يتصور أن يحدث ما نرى ونلمس من تضامن عربى وإسلامى ، يتجاوز القول إلى العمل ، وإلى البذل يوماً بعد يوم ؟

إن من خلال دماء المعركة ، ومن خلال الضحايا والمآسى ، ومن واقع القدس الأليم ، تلوح بشائر مولد فجر جديد ، بكل ما يحيط عملية الميلاد من مشاق ومتاعب وتضحيات .

لقد أسموها حرب الأيام الستة ، ولا أدرى كيف نظرت إسرائيل إلى ما بعد هذه الأيام الستة وقد ظنتها نهاية المطاف ؟ لقد وجدت نفسها فى أول طريق شاق . . انفتحت عليها كل الجبهات المحسوبة وغير المحسوبة . . والتى كانت فى التقدير وفى غير التقدير لحساب المعركة .

ومع الأيام . . ومع الصمود . . ومع الصبر . . ومع الصلاة . . نستطيع أن ننظر إلى ضوء الفجر الحقيقى .

إننا فى موكب الذكرى المحمدية العطرة ، ونحن فى قلب المعركة ، نستطيع الثقة بنصر الله ، ما دمنا نعتصم بحبل الله ، ونقتدى برسول الله ، جاءنا بالوعد الحق ، ولكنه يأتى من خلال المعادلة الربانية :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) .

قد تسمعون ونسمع من يقولون : أين نحن من هذه القوى الماثلة ؟ . . هل للدول الصغرى مكان أو مجال فى الصراع ؟ . .

إن إسرائيل تستند إلى قوى الاستعمار مجتمعة . . فما دورنا نحن ؟ . . وماذا نستطيع ؟ . .

ثم يذهب بهم التفكير السقيم إلى التشكيك فى قيمة التسليح ، وفى

جدوى الإنفاق عليه : أمام عدو يتحدث عن القنابل الذرية ، والحرب الكيماوية . . فى مجال الحرب النفسية .

ونحن أيها الإخوة ، لانجد مناسبة أفضل للرد على مثل هذه الأوهام ، من هذه المناسبة الكريمة ،. مناسبة مولد سيدنا محمد . . مولد اليتيم الفقير ، فى صحراء قاحلة ، جعل من بدوها الذين يربطون الأحجار على البطون ، قادة هزموا أكبر قوتين فى عصرهم : قوة الفرس وقوة الرومان . . لقد كانوا على الحدود المباشرة للجزيرة العربية . . والسؤال هنا : كيف انتصر عليهم محمد والذين آمنوا معه ؟ . .

هل تساءل أحدهم : هل نستطيع الوقوف أمام كسرى فى فارس وأمام هرقل فى الشام ؟ . . هل كان النصر بكثرة الحشد ووفرة السلاح ؟ إن تشريع القتال كما أنزل يقول :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة) .

فأعد النبى ما استطاع من الرجال والسلاح ، ولايكلف الله نفساً إلا وسعها ، لكن الإعداد لم يقتصر على السلاح والتدريب عليه ، بل تجاوزه إلى إعداد الروح المبشرة بإحدى الحسنيين .

أعد النبى لأعداء العقيدة كل ما استطاع ، وفى جميع غزواته ماكانت قوته من الرجال والسلاح تزيد على ثلث قوة أعدائه على أحسن الفروض . . ولكنه كان يسأل الكتائب الخضر دائما :

« أتصبرون عند البلاء ؟» . . قالوا : نعم .

« أتشكرون عند الرخاء ؟ » . . قالوا : نعم .

« أتثبتون عند الحرب واللقاء ؟ » . . قالوا : نعم .

فقال النبى : « مؤمنون ورب الكعبة » .

وصدق الله وعده

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) .

لم يسأله أحد منهم كيف نقف غداً أمام جحافل كسرى فى فارس . . وجحافل هرقل فى الشام ؟ . . فإن أحداً منهم لم يتشكك لحظة فى وعد الله .

كذلك نحن اليوم ، نحذف من حساب المعركة كل من يشك فى نصر الله ، بعد أن اقتدينا برسول الله .

فإننا بحمد الله ، من حيث الإعداد المادى ، نمثل فى المعركة العربية ، مهما طال أمدها قاعدة النضال القادرة على الصمود . . القادرة على الردع . . القادرة على الرد . . هذا الصمود الذى نراه فى الجبهة الداخلية أبلغ من كل وصف . . ونلمسه على خط المواجهة فى قواتنا الباسلة ، وقد أعيد بناؤها فى سرعة مذهلة ، فأصبحت بشهادة الأعداء أقوى مما كانت عليه قبل ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وهؤلاء قادة إسرائيل يعدون قوة مصر عدوهم الأول ، وفى كل معركة يضعون فى تقديرهم القضاء على قوة مصر ، حتى ينفتح أمامهم الطريق إلى ما يريدون . . وما يريدون إلا الفساد فى الأرض . . يسخرون من أجله قوى الاستعمار . . وهى ماضية فى تزويد إسرائيل بالسلاح والعتاد . . تحت ضغط الصهيونية ، تلك الحكومة الخفية ، التى تتحكم فى مقادير دول كبرى ، وتزرع من حولها الحقد فى كل مكان .

أما نحن ، فقد وقفت إلى جانبنا فى التسليح — بعد أن فقدنا معظم سلاحنا فى عام ١٩٦٧ — الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، بغير ضغط ولاتحكم ، بغير قيد ولاشرط . . سوى شرط الضمير الإنسانى الذى يقف بجانب حق العرب بغير حدود .

وعندما نذكر الحق العربى ، يجب أن نذكر إلى جواره أن الحق



وحده قوة ، وليس لأعدائنا من هذه القوة نصيب . . وهى اليوم قوة لست عزلاء بحمد الله .

وإننى أقول فى هذه المناسبة لأولئك المتشككين : لو كانت إرادة الله قد شاءت أن تبنى هذه الأمة . . ألا يكون للبناء بداية ؟ . . وهل يكون من عملنا نحن هذه البداية؟ . . أم هى مشيئة الله ؟ . .

(سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

محمد اليتيم الفقير ، يقوم فى صحراء قاحلة ، فى بلد غير ذى زرع ، ليحمل النور والرحمة والخير إلى البشرية ، مؤكداً للعالم أجمع أن الأمر يعتمد أولا وآخراً على بناء الفرد ، وعلى بناء الأمة بمجموع أفرادها ، الأفراد الذين قالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً .

فعندما قضى الله لهذه الأمة أن تبعث . . وجدنا أنفسنا ، بقيادة الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، طيب الله ثراه ، نستعد ونتحرك ، لإعلان هذه الثورة .

ومنذ كانت الثورة سرًّا فى ضمير الغيب . . لم نسأله مرة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيف نستطيع الوقوف أمام قوات الإمبراطورية البريطانية ، وكانت تعسكر فى القناة وفى سيناء . .

لم نتساءل فى أمر القوى الخفية التى كان يمكن أن تتدخل لتقمع هذه الثورة . . كنا نؤمن بقدرة الله ، ونثق بنصر الله . . كنا مسلحين بقوة الحق . . حق هذا الشعب فى أن يعيش حرًّا سيداً ، يصنع حياته على أرضه وفق مشيئته . . ويحقق بإيمانه وعزائمه ما يشبه المعجزات .

وكان الله قائد هذه الثورة فانتصرت ، وطهرت أرض الوطن من الأعداء الواغلين مرتين ، وتصور البعض أننا قد تخلصنا من الاستعمار

وأعوانه ، ولكننا نجد حروباً تفرض علينا . حروباً تقف من إرادة الله ــلا موقف التحدى ــ بل موقف الدفع لهذه الأمة إلى الحياة الجادة . لكى تكون جديرة بالانتساب إلى هذا النبى ، وجديرة بنعمة الإسلام ، فلا بد أن يهيئ لها أسباب اليقظة العارمة ، فتقوم وهى تستشعر الخطر ، لتبنى بيد، وتحمل السلاح بالأخرى ، فتقيم الصناعة ، وتؤكد معانى القوة ، القوة المادية والقوة الروحية . .

تأخذ بالأسباب وهى تضمن النتائج ، تاكيداً لمعادلة النصر ، وتحقيقاً لقوانين القرآن ، فإن الله لم ينزله ليكون زينة المكتبات ، ولكنه نور يستقر فى الصدور ، ويشع منه برنامج العمل . . فيكون القرآن هو الخطة ، ويكون الرسول هو القائد ، لنستطيع أن نقف أمام أعداء الله ، الذين غضب عليهم ولعنهم ، بما قتلوا الأنبياء بغير حق ، وكانوا دائماً يعتدون .

وإنى أعتقد يقيناً أننا حين نحتفل بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما نحتفل بمولد قوة عظمى ، يحسب لها أعداؤنا ألف حساب ، فهم يعلمون جيداً مدى هذه القوة ، عندما تدفع أو تستفز .

وقد يسأل سائل : متى هذا الوعد ؟ . .

والجواب أن الله حينما بشر بالنصر ، بشر به أناساً صقلتهم التجربة ، واستقر فى قلوبهم الإيمان ، وأصبح اليقين أقوى لديهم من كل نتيجة . . حينما باعوا أنفسهم وأموالهم لله . . كان هدفهم الأكبر هو الاستشهاد فى سبيل الله . . وكان النصر عندهم يأتى كنتيجة مؤكدة وبشرى للمؤمنين . . بدليل أن الله حينما بشرهم بالنصر ، قال لهم :

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ).

أمر آخر سوف تؤكده الأحداث فى القريب . . أن الذين يساندون

أعداءكم ، لن يصبروا على صمودكم . . فهذا الصمود يكلفهم الكثير . . وقد بدأت الكفة تتأرجح . . وبدأت المصالح الاستراتيجية تتدخل فى الموقف . . وسيكون عدوكم على استعداد للتسليم ، بقدر ما فى نفوسكم من تصميم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ)

إن صمود شعبنا المناضل ، وإن وقفة جيشنا الباسل ، قد أمدا الزعيم القائد الراحل بقوة من عندالله ، تؤيده فى تدبير التكاليف ، وتعينه على واجب الالتزام ، لايشغله عن ذلك شاغل ، فكل وقته كان للمعركة ، يعيش فيها ولها ، كما يعيش شعبنا اليوم بكل ما وهبه الله من عزم وتصميم على تحرير الأرض وتحقيق النصر .

لقد أعددنا لهم بعون الله كل ما نستطيع من قوة ، وهذه بشائرها فى طلائع الفدائيين ، تقذف الرعب فى قلوب (المنتصرين!) فى القدس وجولان وسيناء . . وهذه هى القوات العربية المسلحة ، التى حولت خط دفاعهم الحصين إلى رماد . . وهرولت قواتهم مذعورة ، هرباً من وطأة النيران المصرية ، إلى مسافة بعيدة داخل سيناء ، ليقيموا خطا آخر

يحميهم من جيش مؤمن ، جعل شعاره : النصر أو الاستشهاد .

وإننى فى هذه المناسبة ، أتجه إلى قواتنا الضاربة على طول الجبهة المصرية ، والجبهات العربية ، وأذكر الزعيم القائد الشهيد جمال عبدالناصر ، ومن قبله الشهيد عبد المنعم رياض وغيرهما من الشهداء ، لا لأستثير الأسى والعبرات ، ولكن لأقول لأعدائنا ، أعداء الله : كل فرد فى القوات العربية اليوم ، هو طراز أولئك القادة الذين انطلقت أرواحهم إلى السماء ، إلى الجنة ، بعد أن تركوا لجنودهم وضباطهم المثل فى التضحية ، والمثل فى الفداء ، وكان استشهادهم بداية مرحلة جديدة فى المعركة.

(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ) .

قلوبهم غلف . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . لايقاتلونكم جميعاً . بأسهم بينهم شديد . كل جندى مؤمن بعشرة منهم . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يخربُون بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَار) .

ما ظننتم أن يخرجوا من المدينة ، بعد مؤمراتهم ضد النبي ومحاولاتهم قتله ، وبعد أن نقضوا عهودهم معه ، وحرضوا حلفاءهم عليه ، وقد حسبوا أيضاً أن حصونهم سوف تحميهم ، وأن قوتهم المادية سوف تعصمهم من أمر الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، حتى خرجوا من المدينة أذلة صاغرين، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

اعتبروا يا من تتساءلون اليوم : إلى متى يبقى حفدة يهود المدينة فى سيناء ، والضفة الغربية ، وهضبة جولان السورية . . وقد يظن البعض أنهم لايخرجون . . كما ظنوا هم أن خط بارليف فى سيناء سيحميهم من هجمات الفدائيين المصريين ، فإذا هم يأتونهم من خلف ، وتمطرهم المدفعية المصرية من أمام ، فإذا القوة التى لاتغلب ، كما تذيع أبواقهم ، يموت الجندى فيها بالسكتة القلبية لمجرد رؤية فدائى مصرى يصيح فى وجهه : هذه أرضنا .

أعود فأقول إن سقوط القدس على هذه الصورة ، يعد الشرارة الأولى لقوة الدفع ، فلا تكون قضية فلسطين قضية عربية أوإسلامية فحسب ، بل تكون قضية الإنسانية جمعاء .

والبدء هنا فى القوة المذهلة التى انبعثت فى حركة تحرير فلسطين . . لقد اكتشف الشعب الفلسطينى قوته الذاتية فى جحيم المحنة . . لقد قالوا عنه إن هذا الشعب قد انتهى وذاب . . ولكنه أجابهم بالمدفع . . واللغم . . والفداء . . قام إليهم كإشارة القدر الذى غفلوا عنه . .

ومن صحفهم نأتى الآن بالدليل . . فقد نشرت «الإيكومنست» فى أحد أعدادها الأخيرة هذا التعليق على عمليات فتح ، قيادة منظمات المقاومة الفلسطينية :

« إن الدول العربية التى وجدت نفسها عقب حرب الأيام الستة ،

تحت ضغوط سياسية تطالبها بالكثير من التنازلات . . قد وجدت نفسها الآن فى المركز الأقوى على مجابهة هذه الضغوط . بسبب الورقة الرابحة التى أصبحت فى أيدى العرب . وهى تتمثل فى تصاعد حركة الفدائيين العرب داخل الأراضى المحتلة » .

ومع انتصارات أبطال التحرير فى الجبهات العربية ، تأتى وحدة الصف فى تعاون عربى وبذل للصمود فى المعركة . وإحساس يزيد بالشعور بالخطر . والاستعداد لتحقيق الأمل .

والأمل هنا فى نصر الله ، لأننا ندافع عن حق الله . . فعن أى حق يحاربنا الأعداء ؟ . .

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) . كان ضعيفاً أمام قوة الإيمان . . أمام الذين لايتخلى عنهم الله طرفة عين . . أمام الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا .

سيدى يا رسول الله

فى احتفالنا بذكرى مولدك الشريف هذا العام ، نبتهل إلى الله ، أن يدوم فى قلوبنا هذا الاحتفال ، حتى نرى مصارع المفسدين فى الأرض . وحتى تعود مفاتيح القدس إلى الأمناء عليها من أتباعك ، أيها الرحمة المهداة .

أما أولئك الذين يتساءلون عن مصير الحق أمام جبروت القوة ، فإننا ندعوهم ونكرر ما دعوتنا إليه :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) .

والصبر نصف الإيمان . ونحن فى حاجة إلى كل الإيمان ، وهو يأتينا بالصلاة ، بالصلة الدائمة بالقوى القادر . . القوى فوق كل قوى ، والقادر على هلاك كل ظالم . .

قال تعالى فى حديث قدسى :

[من كان لى مطيعاً ، كنت له وليًّا . وعزتى لو سألنى إزالة الدنيا لأزلتها له] .

ونحن يا رسول الرحمة ، لا نطلب زوال الدنيا . وإنما نطالب أن تسود الرحمة بين الناس كافة ، وإننا لصابرون على البلاء . . ثابتون عند اللقاء . . نعاهدك فى ذكرى مولدك ، أن نقاتل على طريقتك ، دفاعاً عن كل عقيدة سماوية ، ضد عدو يحارب كل عقيدة ، ويوشك أن يورد البشرية موارد الهلاك ، ومسئولية الأمة المحمدية ، هى إشاعة الرحمة فى العالمين .

وأنت . . أنت لها يا رسول الله . . وإننى أراك . . أراك القائد المنتصر والبطل الرحيم . . مولدك نور ، وحياتك جهاد ، وقوتك الغالبة ، ورسالتك الرحمة ، وأمتك خير أمة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتخوض النار من أجل أن يعبد الله وحده ، ولينصرن الله من ينصره ، إنه لقوى عزيز .

الفصل الثالث

إسلامنا عقيدة شاملة تحتوى الاشتراكية

لقد شاء الله أن يضع بين أيدى العلماء مسئولية دعوة الإسلام التى هى دعوة اشتراكيتنا.. إنها مسئولية الرسالة، مسئولية إعلاء كلمة الله، ولا جدال فى أن هذه المسئولية ذات جوانب عدة، وأنها تقتضى مفهوماً موحداً.

فلو انطلق كل داعية على سجيته، لكانت الموضوعات التى يتناولها ذات انفعال خاص. وقد لا تصيب الهدف العام. فنحن جميعاً بشر، وكل منا يتأثر ويؤثر. فإذا انفعل بما يسمع، وكان ما سمعه ضاراً، فضرر انفعال الداعية لا يقع عليه وحده، بل يصيب المجتمع الذى يستمع إليه.

ومن هنا يتضح أن مسئولية الدعوة ليست مسئولية فردية، وأن الأمر يتطلب منا وحدة فكرية، حول المفاهيم العامة، حتى تكون دعوتنا هادفة، ولا نسبح فى خضم العلم بلا هدف.

أكتب هذا، ولست أعلم منكم بأن الرسالة الإسلامية عندما بدأت كانت الأحداث التى تمر بالمسلمين هى موضوع الوحى آية فآية، وكان نزول الآيات مرتبطاً بأحداث الحياة كل الارتباط.. وإلا فتصوروا معى لو كان المسلمون يخوضون معركة حربية مثلا، ثم نزل الوحى فى تنظيم الزواج والطلاق والميراث.. ماذا يكون الموقف إذن؟..

أعتقد أنه لو كان الأمر كذلك، لما آمن الناس بالقرآن، ولما انفعلوا بالإسلام.

إننى حينما أدعوكم أن تتفاعلوا مع الأحداث، أربأبكم أن

تنافقوا الأحداث . ثم أدعوكم أن تؤثروا فى الأحداث . أدعوكم إلى دفع الناس إلى الخير . ولكم فى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، المعين الذى لا ينضب ، والذخيرة التى لا تنفد .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) .

وإذا أردنا أن نتخذ سبيلنا فى دعوة الناس إلى الخير . وجب أن نعرف أين مكاننا . ومن نحن ، وإلى أين نسير ، وأى هدف نحقق . وباسم من نتكلم ، ولمن نعمل ؟

مكاننا يا دعاة الإسلام هو قاعدة التحرر .

مكاننا هو مركز الدعوة إلى العزة

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

مكاننا فى موقعنا أيضاً وهو مصدر قوة ؛ مكان الأمة الوسط ، والوسط هو الاعتدال . . الوسط هو المكان المتوسط الذى يسهل الانتقال منه ، والإشعاع منه ، والتأثير منه . .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

فإذا أردنا أن نتبين خطانا ، ونعرف إلى أين نسير نتجه دائماً إلى الله عزوجل ، فقد سمى المسلم مسلماً ، لأنه أسلم وجهه لله ، ومن يسلم وجهه إلى الله ، لايخشى فى الحق لومة لائم ، فهو دائماً قوى بهذا الحق ، مستقيم على الطريق .

أما الهدف فهو الرحمة .. الرحمة هدف الإسلام فى كل قول وكل

عمل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) . جاءت الآية بنفى النفى للتخصيص والتحديد. ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت. وإليه سبحانه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه .

وإننا جميعاً حين نعمل. فإننا نبدأ كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم تذكيراً بالهدف . حتى لا ننحرف . وتأكيداً للرحمة . حتى لا نضل .

اللهم هب لنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً .

وأنتم تعلمون أن رحمة الله لا تعنى معنى الشفقة. ولكنها رحمة القدرة، أعلى مراحل القدرة ، فإنه لايقوى على الرحمة إلا القادر عليها . وإن الرحمن الرحيم سبحانه هو القوى القادر . وهو الذى يرشدنا دائماً إلى أن قوته وقدرته تهدفان إلى الرحمة ، الرحمة التى عنيها الخليفة أبو بكر بقوله : « إن الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، وإن القوى فيكم عندى هو الضعيف حتى آخذ الحق منه » .

باسم من نتكلم ، باسم من نتحدث ؟

(وَلَا تَعْدُ عَيناك عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عِنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

نتكلم باسم هؤلاء الذين وجه الله رسوله إليهم، وأمره بألا يتخلى عن صحبتهم ، ولا يتحول نظره عنهم . ولايعمل إلا لهم ، ولو تخلى النبى عنهم وعمل لغيرهم ممن اتبعوا هواهم . لانحرفت الدعوة ، وانفض الناس عن الرسالة ، وأصبحت المسألة مسألة مصالح خاصة ، ولما كانت الرحمة للناس كافة .

ولكن الله حفظ رسوله ، وحفظ عليه استقامة القصد ، واستقامة

الغاية مهما كلفه الأمر . ومهما أصابه فى سبيله من عنت ، وتعب ، وأذى. وكلنا يعلم ماذا قال لعمه وقد جاء يقول له ما قال المشركون : إن كان محمد يريد مالا أعطيناه ما لدينا . وإن كان يريد ملكاً ، ملكناه علينا ، ليكف عن دعوته .

فأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله :

« والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته ».

هذا هو مثلنا فى تحقيق الاشتراكية على أنها وسيلة الرحمة ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

وها نحن أولاء ننادى بالعدالة الاجتماعية من أول يوم فى هذه الثورة ، لم ولن تتحول أعيننا أبداً عن أولئك الذين نتحدث باسمهم ، ونعمل من أجلهم .

قلت وسأقول دائماً إن الرحمة هدف هذه الثورة .

هدف الثورة عندما قامت لتحرير الوطن من حكم الأجنبى ، وتحكم المستغل وظلم الإقطاعى ، وحبس المال فى أيدى فئة قليلة ، لاتعرف حق الله فيما تملك ، ولا تؤدى حق الجماعة فيما تكتنز ، ويحسب كل منهم أنه لا يراه أحد ، ولن يقدر عليه أحد ، ويسخر الناس فى خدمته ، ثم لا ينالون منه ما يسد الرمق ، أبسط حق لأى مخلوق حى .. فهل يمكن أن تتحقق الرحمة فى مجتمع كهذا ؟ . .

هل لنا أن نتدبر هذه الآيات البينات :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ . أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ . يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا . أَيَحْسَبُ أَنْ

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ . أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) .

وهكذا نجد أن العقبة فى بناء المجتمع هى الأثرة ، وهى الأنانية ، وهى الحرص على جمع المال ، والتحكم فى الثروة ، واحتكار أرزاق الناس ويقول أهلكت مالا لبداً ، ولايذكر نعم الله عليه ، وقد جعل الله له عينين ليرى ، ولسانا يفصح ويبين ، وعقلا يدرك ، وقلباً يحس بشقاء الملايين .

وحسبنا أن نتابع حقائق الدخل القومى فى بلدنا ، لنرى الظلم البين فى توزيع هذا الدخل . إن ٦٠٪ منه كانت تذهب إلى خزائن الذين لا عمل لهم سوى انتظار نصيب الأسد . . و٤٠٪ من هذا الدخل هى مجموع ما كان ينفق فى الأجور وتكاليف الإنتاج .

كيف يمكن أن يستقيم الوضع ؟
كيف يمكن أن يقوم البناء ؟
كيف يمكن أن تتحقق الكفاية والعدل ؟ . .

والبناء هو بناء الأمة . بناء البشر . . لم يعد هذا البناء مجرد نية طيبة أو شعار براق . . لكن لدينا خطة عامة للتنمية لنبنى فى مجال الإنتاج ، وفى مجال الخدمات ، ليتمتع كل فرد فى هذا المجتمع بحقه فى العلم ، وحقه فى العمل ، وحقه فى العلاج ، وحقه فى الرعاية ، وتأمينه على ذلك كله . . وتأمين أسرته من بعده .

فهل كان ممكناً أن يتحقق شيء من ذلك . والثروة كلها في أيدى فئة قليلة استبد بها الطمع . وتحكمت في مقادير الناس بغير رحمة ؟

فيم إذن قامت الثورة ؟

ولمن ننادى بالعدالة الاجتماعية ؟

إن مدادكم يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء . وعلى كل منا واجب تبصرة هذه الأمة بحقها في الحياة الكريمة . وإننا لم نصدر القوانين الاشتراكية لنجعل أموال البلد ، ولا أرض البلد . ملكاً لجماعة أو لفرد . .

هذا الوطن وطننا جميعاً . ولم نعرف في الإسلام حقاً لا يرتبط بمصلحة الجماعة . فإن جهل البعض بأحكام الدين ، وإن أنكر البعض أن الملكية وظيفة اجتماعية . فقد فرض الله على الحاكم أن يقف بجانب الضعيف حتى يأخذ الحق له . . وفرض على الحاكم أن يستخدم المال لمصلحة الجماعة .

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ، (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) .

وإن قوانين الإصلاح الزراعى ، وتحديد الملكية . والتأميم . وتحديد الدخل وتخصيص ربع الأرباح للعمال . وتمليك المعدمين ، والتأمين الاجتماعى . . كلها قوانين مستمدة من أحكام الإسلام . لانتزاع الأثرة من قلوب المستغلين . . من نفوس المتكالبين على جمع المال . . لا تطاوعهم نفوسهم على التضحية بشيء مما يتحكمون فيه ، ومع ذلك كله فإن الثورة لم تصادر ما يملكون ، فعوضتهم عن جزء من الأرض وجزء من المال بسندات على الدولة . وحررت الأموال الحبيسة لتحرك ،

وتكفل لقمة العيش الكريمة للملايين المكدودة . وها هى ذى قد رفعت الحراسة أخيراً مما يدل على أننا نعمل لمصلحة الجميع كما تقرر تقنين الثورة لمصلحة الملايين .

إننا نتجه إليك يا رسول الله فى كل عمل .. نرد إليك كل شىء . . هدفنا تحقيق رسالتك الرحمة بكل مواطن . سبيلنا أن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ، وأن يجد العمل كل طالب عمل . وأن يؤمن كل عامل على يومه وعلى غده . وأن تسود فى هذا البلد شريعة العدل شريعة الله .

ما أردت بهذه الخواطر أن أعلمكم درساً . فأنتم أعلم منى بآفاق الرسالة . . ولكنى أردت أن أنقل إليكم صورة من المعركة الكبرى التى نخوضها الآن . . معركة بناء الأمة من جديد . . وليس هذا بالأمر اليسير .

إننا دعاة رحمة بالمجتمع كله . ولنا فى أحكام ديننا عصمة من ذلك كله ، ولنا فى رسول الله الذى نحتفل بمولده فى هذه الأيام أسمى قدوة فى الدعوة إلى الرحمة ، وإلى التكافل . وإلى الاشتراكية التى تجعل المال فى خدمة الإنسان ، وليس أداة لإذلال الإنسان .

إننا فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا . نعتز بأننا نعيش الثورة الاجتماعية . . ثورة من أجل الخير للوطن كله . . ثورة للمواطنين جميعاً . . ثورة تمثل المبادئ التى يستهدفها العدوان الذى نقوم إليه الآن .

إننا نعيش فى هذه البقعة الطاهرة من الشرق ، الذى اختاره الله سبحانه . ليكون مهبط الوحى . ومنزل النبوة ، ومنبع العلم . ومبعث الرسالة . . وهذا فضل تفضل الله به علينا . ولن نستطيع الاحتفاظ به . إلا إذا أصلحنا ما فسد من أنفسنا . وقومنا ما اعوج من أخلاقنا ، وسبيلنا إلى ذلك هو التعاون على البر ، والتواصى بالحق والخير ، وأن

ننتهى عن كل ما تنكره ديانات الله ورسالات الأنبياء . . فنحن لا نريد أن نعتدى على أحد ، ولا نريد أن ننكر على إنسان حقًّا من حقوقه ، فعلاقاتنا كأمة واحدة . وعلاقاتنا بأمم الأرض وشعوب العالم ، نحرص أن تقوم على هذا الأساس الكريم العزيز ، الذى يرفع قدر البشرية ، ويرسى قواعد الحق والعدل والسلام والحرية والوحدة الأخوية .

وأذكر أن الرسول المختار صلوات الله عليه وسلامه ، كان يكثر من ترديد قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ، وكان يتبع هذه الآية بالحديث الشريف : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام أعلم بقدر نفسه كإنسان ، وأنه هو أشرف الخلق عند الله . . كان يطيل العبادة والسجود ، ويطيل التأمل والقيام بالليل حتى تتورم قدماه ، وحتى أشفق عليه صحابته من شدة الإرهاق فى العبادة ، فقالوا له :

« لم كل هذا الجهد يا رسول الله وقد فضلك سبحانه على جميع العالمين ، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وأعطاك وحدك حق الشفاعة ؟ »

فكان المصطفى الحبيب لمولاه يجيب عن ذلك بقوله دائماً :
« أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فلنتدبر فى أنفسنا ، ولتكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة ، لنعرف قدر أنفسنا ، وإن مقياس هذا القدر العظيم هو الروح التى نفخها فينا الله ، فربطنا إليه ، وأباح لنا الاتصال به ، والشكوى إليه ، وأذن لنا بالدعاء كما أذن لنا بالإجابة .

ولكن وصول الشكوى واستجابة الدعاء يتوقفان على قوة الصلة بيننا وبين الله ، وتأتى الصلة بما يقدم الإنسان من عمل ، يطهر به نفسه ، ويزكيها ، ويرفعها ، ويقربها من ربها ، ليحتل الإنسان مركزه الذى ارتضاه له ربه ، وقد كرمه وفضله على كثير ممن خلق .

أو يكون ضعف الصلة . إذا جهل الإنسان قدر نفسه ، وانحدر إلى عنصره الترابى ، أى عاد إلى الطين مجرداً من الروح ، لاقدر له ولا مكان عند ربه . واتبع هواه فكان أمره فرطاً . ذلكم هو شأن الإنسان عندما يخرج عن أمر ربه .

كذلك شأن الأمم . إذا تنكرت للمعروف واستباحت المنكر ، فإنها لابد منحدرة فى ميزان الإنسانية . وبذلك تفقد ما أراد الله لها من تكريم ، فيحق عليها القول ، كما حق علينا من قبل . لولا أن تداركَ الله مصر برحمته . فهيأ لها من بنيها من قاموا فى وجه الظلم ، وغضبوا لكرامة الإنسان فى هذا البلد ، فثاروا من أجل الحق . وتنادوا بالجهاد ، متمثلين فى ذلك بقول الصحابة فى غزوة الخندق :

« نحن الذين بايعوا محمداً　　على الجهاد ما بقينا أبداً »

هل نسيتم قول الله فى أمتكم :

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ؟

وقد آن الأوان لكى نعلم أن ديننا إيمان وقوة ، وأن تاريخنا فتح وحضارة ، وأن شرعنا دين ودنيا ، وأن حربنا جهاد وشهادة ، وزعامتنا أمانة وقيادة .

إن عزكم فى اتحادكم ، واجتماعكم على عبادة الله ، وليست صوماً وصلاة فحسب ، ولكنها جهاد العبد فى الاتصال بمولاه ، والجهاد يبدأ بالضعف أمام الله والقوة على من عاداه ، وسبحان من يحب الأقوياء ويجعلهم دائماً خيراً من الضعفاء . إن العبادة رياضة للنفس والقلب والروح ، إنها الإرادة الصادقة معززة بالإيمان واليقين .

لقد حارب الاستعمار عبادة الله بشتى الحيل والأساليب ، فأورثنا ضعفاً فى الوازع والضمير ، وترك لنا عوامل الشر والفساد ، فقمنا على

قلب رجل واحد . لنطهر أرضنا من الشر ومن الفساد ومن ضعف الوازع وضعف الضمير ، ونضع فى ذهن كل مواطن ما لحق بنا جميعاً من استبداد المستعمر :

العلم فى المدارس كان ظلاماً . .

والحكم فى الناس كان طغياناً . .

وكان الدين غريباً فى وطنه .

قل جاء الحق ، وانتفضت مصر . وانتفضت معها أخواتها من البلاد العربية ، وقررت أن تركب الصعب لإدارك عزتها ، وقررت أن تخترق النار إلى الحرية وإلى الكرامة . فلامكان بيننا اليوم لخائن متحايل ، أو خائف متخاذل ، أو ضعيف متواكل ، أو مرجف بالزور والباطل . .

إننا جميعاً اليوم فى ثورة اشتراكية إسلامية . وقادة هذه الثورة أول المؤمنين بحق العرب فى الحرية ، وبأن هذا الحق يؤخذ ، وأن هذا العدو يجب أن يطرد ، وأن بلادنا لابد أن تسترد مكانها تحت الشمس .

* * *

صلوات الله وسلامه عليك يا من نفخر بأننا من أتباعه ، يا من علمت الناس الدين على حقيقته ، وكنت أعلم الناس بربك وبرسالته ، وتقدمت الصفوف فى كل ميدان . فكنت الإمام فى العلم وفى الصلاة ، وأنت القائد فى الحرب والنضال . . ويكفيه صلوات الله عليه أن ربه هو معلمه ومربيه ، ثم يقول فيه سبحانه :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

هذا النبى العربى الأمى . أرسله الله رحمة للعالمين ، فصدع بأمر ربه ، متوكلا عليه . بعد امتلاء قلبه بالإيمان . فجاهد فى سبيل الله ،

لا يخشى عدواً ، فالله أحق بالخشية . . وقد اطمأن الرسول إلى حماية الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم يرها أعداؤه . فانتصرت الدعوة ، وانتشرت الرسالة . رسالة الرحمة .

هذا هو نبيكم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . بل هذا هو قائدكم ومثلكم الأعلى . فإن قلتم إن عدوكم أكثر منكم عدداً وعدة ، فإن نبيكم لم يقل هذا عندما كان ثانى اثنين فى الغار . ولكنه قال : إن الله معنا . . فكانت السكينة وكان تأييد الله الذى وعد بنصره المؤمنين ، فما باله بنبي المؤمنين .

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الفصل الرابع

« إنّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكُم »

حديث شريف

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ ، وهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا ولَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون) .

قال عليه الصلاة والسلام : « أول من يسأل يوم القيامة رجل آتاه الله العلم فيقول له الله تعالى : ماذا صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم . ألا فقد قيل ذلك .

ورجل أتاه الله مالا ، فيقول له الله تعالى : لقد أنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك .

ورجل قتل فى سبيل الله ، فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله تعالى : كذبت . وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك . أولئك تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة » .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يقول الله عز وجل : الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . فاستغفروا ربكم يغفر لكم . وادعوه مخلصين له الدين .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

ألا ترون معي ، معشر المسلمين . أن نبيكم الذي نحتفل بمولده الآن قد جاء ليرحم البشرية مما تعانيه ، ويرحم النفس مما تقاسيه ، فيشيع في الناس استقراراً نفسياً ، واطمئناناً روحياً ، وعدلا اجتماعياً ، يقوم على قاعدة واحدة هي الرحمة أول الأمر وآخر الأمر ؟

إن الرحمة التي كتبها الله على نفسه ، لخير البشرية ، وكثيراً ما تجهل البشرية ما فيه خيرها ، ويبحث أهل الضلالات جاهدين أنفسهم مبتدعين ما يزيد في ضررهم وشقائهم . أفلا نتدبر رسالة الرحمة التي ما جاءت إلا لتبدل خوف الناس أمناً ، وضلالهم هدى ، وذلهم عزة ، وعداوتهم أخوة ، وضعفهم قوة — فيكونوا أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم — وهذا شأن محمد والذين آمنوا معه ، رضي الله عنهم ورضوا عنه .

أذكر أنني بعد أن عدت من منزل الوحي منذ سنوات ، حيث تجاذبتني في رحلة الحج خواطر وأحاسيس طغت على نفسي ومشاعري ،

أردت ألا أستأثر بها لنفسي . بل فضلت أن أنقلها لكم . لننتقل معاً إلى تلك البقاع المقدسة ، التي كانت مهبط رسالة الرحمة .. وإنني لأذكر وقفة المسلمين في عرفة . وهم يبتهلون إلى الله العلي القدير ، يرجون الرحمة ويشفقون على أنفسهم من العذاب .. هناك وهم وقوف يلتمسون ذلك في سفح جبل الرحمة . الذي سمي كذلك . ليذكر الله كل ساع إلى رحمة الله ، فيدعوه في وقفته هذه فيستجيب إليه . ويسترحمه فيرحم ، على أن تكون الدعوة صادرة من قلب مؤمن ، موصول بربه ، فإنه تعالى قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

إلى هذه البقعة الطاهرة دعينا ، فقلنا : لبيك اللهم لبيك . ومررنا في طريقنا بجبل النور حيث كان يتعبد الرسول في غار حراء ليتهيأ للرسالة . رسالة النور والرحمة .

﴿ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

وبينما أنا مستغرق في معنى هذه الآية الكريمة . ألح على سؤال ما صبرت على كتمانه . فألقيته على صحبي قائلا :

– ماذا تظنون أن يعمل محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصلاة والسلام . لو بعث اليوم ؟ ماذا تظنون أن يصنع بالمسلمين ، وهم من الضعف والهوان والاستكانة كما نعلم ، أترونه يبدأ الطريق بجمع حكام المسلمين في مؤتمر فيخطبهم مثلا ويوجههم ؟ . . أم ترونه يطوف بأرجاء العالم الإسلامي على اتساعه وامتداد رقعته من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ليبشر برسالة الرحمة والنور من جديد ؟

ألقيت السؤال ، فعجب صحبي ، ولم أنتظر منهم جواباً ، بل تصورت

أن صلوات الله وسلامه عليه . لن يعمل غير ما عمل فى بدء دعوته . .
هذه الدعوة التى كانت ، وما تزال ، وستظل ، أروع انقلاب ،
وأخلد ثورة تحريرية فى تاريخ البشرية .. أعتقد أنه لو بعث الآن :
لبدأ الكفاح من أول الطريق : سيبحث له عن أبى بكر يطمئن إليه ،
ويصدقه القول والعمل والتضحية . . سيبحث عن عمر ليحارب
به أعداء الدعوة إلى الحق والقوة والرحمة ، وسيسعى إليه على، ليقود
الشباب ويعلمه إنكار الذات والفداء فى أسمى صوره . وسيأتى إليه
عثمان ليكون مثلا للإنفاق فى سبيل الله .. سيبحث النبى الكريم عن
أمثال هؤلاء الرواد وعن صحابة يطمئن إليهم ويطمئنون إليه : فيكونون
لسانه فى الدعوة يتعلمون منه الكتاب والحكمة : مصداقاً لقوله تعالى :

(هُوَ الَّذِى بعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ) ، (ويُزَكِّيكُمْ ويُعَلِّمكُمُ الْكِتَاب والْحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

وبهؤلاء النفر القليل ؛ وبحسب النبى ربه ومن اتبعه ، سيبدأ عمله فى
القضاء مرة أخرى على الجاهلية التى نعيش فيها اليوم ، ونشقى بها ونهون
على أنفسنا وعلى الناس .

إن الجاهلية فى عصرنا هذا ، لهى أشد وأنكى وأمر من الجاهلية
الأولى . ففى المسلمين كثير أعرضوا عن ذكر ربهم ، فجعل
معيشتهم ضنكاً ، وسيحشر كلا منهم يوم القيامة أعمى .

(قَال ربِّ لِم حَشَرْتَنِى أَعْمَى وقَدْ كُنْتَ بصِيرًا ،

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) .

إنى لمشفق على كل مصلح يقوم ليبدأ كفاحه فى هذه المحن التى نقاسيها من أنفسنا ، فإن أمام هذا المصلح جبهات متعددة يجب أن يستعد لها فى عزم وإصرار ، لاتقذف به الأهواء ، ولاتندفع به العواطف ، ولا يتطرق إلى نفسه اليأس ، لأنها رسالة يجب أن تتحقق مهما كانت التضحية ومهما كان الفداء . وإن البناء اليوم يحتاج إلى عناء مضاعف فإنه ليس بناء فحسب بل إزالة وبناء وتطهير وإقامة . . يجب أن تزول الأنقاض ، حتى يقوم الصرح الجديد ، ولايعوقه عائق ، بل ينطلق انطلاقاً على أساس صلب متين دعامته الإيمان ، وسنده القوة .

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)

يا عباد الرحمن . .

قال تعالى :

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، لِيُنْذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

سبحانك يارب ! وما أعظم حكمتك ! لقد رأى البعض فى هزيمة فلسطين نقمة ، وإننا لنراها نقمة أريد بها نعمة ، وشدة أريد بها رحمة ، لأننا نذكر قولك الحكيم :

(وَأَنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فى الْأَرْض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) .

إن تعاليم ديننا تقضى بأن الوقاية خير من العلاج . وأن الإسلام ليصف الدواء قبل وجود الداء . ولكننا لم نأخذ بهذا الأمر ، فقد كان ينقصنا الإعداد والتنظيم . ومن بين ذلك الظلام تجلى نور الله فنشر رحمته بين قلوب نفر من ضباطنا الأحرار تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وقرروا أن أساس العلة والداء هو الاستعمار الرابض فى مصر ، والمتمثل فى كل ذنب من أذنابه ، وتحدد بهذا القرار ميدان المعركة . كان هنا فى الداخل . . إنه الجهاد الأكبر ، جهاد مصر ضد كل نفس أمارة بالسوء وضد الشر الذى كان مسيطراً على رقاب العباد . . حتى تتحرر البلاد ، من ذل حاكميها ومستعبديها . وهكذا قام الأحرار يحاربون دفاعاً عن رحمة الله بعباده . . قمنا نطبق أمر الله بقوة الله ، الذى هدانا إلى رحمته (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ) فانطلقنا فى ثورتنا المقدسة ، عسى أن نحقق لإخواننا فى الله والوطن الأمل فى الرحمة التى طالما انتظرناها جميعاً .

لقد عقدنا النية والعزم على أن نهتدى بهدى الرسول الكريم وأن نعمل بما أمرنا به رب العالمين . ولنا بطاعة الأوامر وبهدى الرسول، فى الماضى القريب نصر مبين ؛ فاللهم إنا نحمدك ونشكرك على الفضل الذى هو منك وإليك ، ونتوب إليك ونستغفرك . . فيارب هيئ لمصر من أمرها رشداً ، واهدها الصراط المستقيم وطهر أرضها من الخونة ونفوسها من الضعف ، لتستحق النصر الذى وعدت به عبادك المؤمنين . اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونخلص فى

طاعتك ونتوكل عليك ، ونؤمن بك ونسألك الصواب . ونثنى عليك الخير كله . اللهم اشمل بعنايتك ورضوانك وتوفيقك هذه الثورة التى قامت من أجلك وفى سبيلك وباركها .. فقد قامت لإعلاء كلمتك. اللهم حمداً لك أن هديتها إلى الجمهورية التى يقوم الحكم فيها بأمر منك . فارحم ضعفنا بين يديك ، وارحم بقوتك جمهوريتنا ، وهيئ شعبها لحكم الشورى . وارشد كل مصرى وكل مسلم إلى ما فيه الخير والنصر .

اللهم اهدم صرح الدخيل فى بلاد المسلمين ، اللهم وحد قلوبنا ، وانزع الأحقاد من صدورنا . وطهر نفوسنا من رجسها . واربط أرواحنا وعقولنا بطاعتك . ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به . واقبل فينا شفاعة محمد فى يوم الدين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ؛ واجعل لنا من إيمان الصحابة والتابعين قدوة ، ومن جهادهم مثلا ، ومن هداهم نوراً يوصلنا إليك .

إلهى إن مصر ترجو أن تجيب سؤلها . وتحقق حريتها . وترد إليها كرامتها . وتحرز لها النصر . فانصرها على أعدائك وأعدائها . إنك يارب سميع مجيب .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رحمَةً لِلْعَالَمِينَ)

هذا النبي يا أهل السماء والأرض نبينا ، وفى اتباعنا إياه عزّنا فى الدنيا والآخرة . وسوف نتبعه كما شاء منا أن نتبعه . وإذا كانت أضاليل المدنية الكاذبة قد حجبت عنا النور زمناً ، فاتجهنا إلى الضعف والتردد فى مجال تكوين شخصيتنا القومية الصريحة الواضحة . فقد انتهى ذلك الضعف والتردد ، وبدأنا نجتاز مرحلة جديدة فى تاريخنا . ولسوف تشدنا دائماً أمجاد لنا ضاربة فى أعماق الزمن ، ونحن فى هذه الدوامة الطاغية . نحس بالرغبة الجامحة إلى التوقف ، لنستمع إلى نداء الفجر ، ونتأمل أن الله أكبر ، ونتدبر فى سكينة وهدوء ، أين كنا ، وأين نحن ، وفى أى طريق نسير . . يجب أن نحدد الطريق :

لا يمكن أن تفصل قوة بين ما ضينا ومستقبلنا . .

هل تستطيع الأحداث أن تطمس معالم شخصيتنا الضاربة فى أعماق التاريخ ؟

إن شخصيتنا العربية الإسلامية هى التى تملى علينا اقتفاء الآثار ، لنمسك بالخيط من أوله ، فنعرف الأساس الذى سيقوم عليه البناء ، بناء الأمة الواثقة من نفسها ، الواثقة بشخصيتها ، المعتزة بأساسها المؤملة فى مستقبلها العزيز .

حينذاك نؤمن ونلمس معنى قول الله عز وجل :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) .

يا أمة الإسلام . . متى عرفنا الطريق . تحددت الشخصية ، وتبين لنا أساس البناء . وينبغى أن نعرف كيف السبيل إلى البناء . وإلى السلام ، وإلى القوة . وإلى الحرية . وإلى العدالة ؛ وإلى المساواة . .

إن السبيل واضحة وإن الرسالة محددة . وإن المسئولية ممتدة . من صاحب الرسالة والرحمة . رسالة نبينا . والرحمة معنى قرآننا . والرحمة هدف ثورتنا .

ألا فلنسأل عند وضع أى تشريع ، وعند تدبير كل أمر . كيف تتحقق الرحمة عن طريقه أولا . . فإن كان هذا التشريع أو ذلك الأمر وسيلة إلى الرحمة فهو الحق وهو الرأى ، فلنمض فى الطريق ، وحسبنا أن نمضى إلى أشرف هدف . ولنطبق غاية الإسلام . . أى الرحمة التى نؤمن بها ونعمل فى سبيلها ما وسعنا العمل ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

إن الإسلام قوامه الشهادة بالتوحيد وقيادة نبى التوحيد . ترفع هذه الشهادة قوائم عتيدة : هى الصلاة والزكاة والصوم والحج . فإن تدبرنا هذه العمد الرواسخ ، وجدنا نصفها للاتصال بالله ونصفها للاتصال بالناس فى سبيل الله ، وكلها من الجلاء والوضوح بحيث لاتطغى صلة على صلة ، ليكون المسلم متوازن العقيدة ، فلله حقوق ، وللناس حقوق ، ومن أدى حق الله ولم يؤد حق الناس فلن يقبل منه ، ومن أدى حق الناس وأهمل حق الله فقد أحبط عمله ، ولا مكان له فى قائمة المسلمين .

* * *

نزل جبريل إلى سيدنا محمد وقال له : أتريد يا محمد أن أجعل لك فى مثل جبل أحد ذهباً ؟ فقال : « لا يا رب ، أجوع يوماً فأسألك ، وأشبع يوماً فأحمدك ، اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكناً ، واحشرنى يوم القيامة فى زمرة المساكين » .

وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من هذا الدعاء فى صلواته ، حتى استكثر عليه ذلك تابعه أنس بن مالك ، وقال يا رسول الله هذا جبريل يستأذنك فى أن يجعل لك جبل أحد ذهباً ، وقد رفع الله ذكرك ، وشرف قدرك ، وتدعوه أن يحشرك مع المساكين . . .لماذا تكثر من هذا الدعاء ؟

فابتسم رسول الله ثم قال : « ألا تعلم يا أنس أن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين » .

اسألوا الله من فضله أن يملأ قلوبكم وقلبي رحمة وعدلا وإحساناً .

* * *

جاء فى الحديث الشريف : [إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته] .

عباد الله إذا أعطاكم الله فحصنوا أموالكم بالزكاة ، فقد كان من قبلكم قوم يعطيهم الله فيمنعون الزكاة . .

كان أبو ثعلبة فقيراً مسكيناً يحافظ على الصلوات الخمس ، يسبق الناس إلى المسجد ، ويقوم على قضاء حوائج الناس ، فى سرعة ونشاط ، حتى لقبوه بحمامة المسجد . .

كان لا يصلى إلا خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يعرف يوم يغيب ، فتقدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم يوماً وقال :

أريد أن يرزقنى الله رزقاً كثيراً بدعوة منك ، وأعاهدك على أن أقوم لله فيه بما يجب . فوهبه الله رزقاً كثيراً وسعة ، فبدأت حماسته

للصلاة تفتر . . لقد شغلته إبله وماشيته فأخذ يحضر الجماعة وقتاً ويتخلف وقتاً ، حتى اكتفى بصلاة الجمعة . .

ثم ذهب ولم يعد !

لقد شغلته الدنيا ، فسئل فيه رسول الله فابتسم ثم نزلت الآية :

(ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) إلى قوله تعالى: (اسْتَغْفِرْ لَهُم أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

هم الأخسرون أعمالا . منهم : أبو ثعلبة هذا ، صلى وصام لأمر كان يطلبه ، فلما آتاه الله من فضله رفض دعوة النبي إلى دفع الزكاة ، وكثير من الناس منع الزكاة بعد وفاة الرسول ، فجمع أبو بكر رضى الله عنه

الصحابة للتشاور فى الحرب . وقال لهم : « والله لو منعونى عقال بعير مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم فيه » .

فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

كيف تقاتل الناس وقدقال رسول الله : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فالزكاة حق المال .

قال عمر : إنه الرأى . وما رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال ، حتى عرفت أنه الحق .

قال أبو بكر : من ترك شيئاً من الدين وجب قتاله عليه كما لو ترك الدين كله .

الفصل الخامس

الحربُ فى سبيل السّـلام

الحمد لله والصلاة والسلام على من أحبه ربه فاصطفاه . . اصطفاه لعظيم خلقه ، وقوة بأسه ، وثبات عقيدته ، فبعثه برسالته . واختصه بنشر دعوته . وهل دعا محمد إلى غير السلام ؟ . .

من أجل السلام حمل محمد السيف لإقرار السلام وتأمين الأمة . . حمل سيفه للدفاع عن الدعوة ، فكان تجييشه الجيوش . وكان تسليحه لها بالعقيدة . وكانت غزواته عليه السلام لهدف واحد وغرض واحد هو أن يشيع السلام فى الضمير ، والسلام فى البيت ، والسلام فى المجتمع ، فلم يترك أمته حتى أدى الأمانة وأبلغ الرسالة ، ورضى لنا الإسلام دينا ، ودعانا لقول الله تعالى : (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) . وأراد الإسلام بهذه الآية تذكيراً وتحذيراً ، تذكيراً للكافرين بيأسهم من كمال هذا الدين القيم ، وأراد تحذيراً لنا حتى لانخشاهم بل نخشاه هو وحده . فإن هذه الخشية هى القاعدة الإسلامية الأولى يتحرر بها العبد من كل ما فى الدنيا من فتنة وخوف ، ويكون الدين والتسليم خالصاً لله . وبذلك وضع حجر الأساس فى بناء العالم على السلام .

وكان عليه الصلاة والسلام يجهر بختام دعوته هذه . ثم يقول : ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

نعم لقد أبرأ ذمته بينه وبين خالقه ، ويشهده تعالى ويشهد الناس

على أنه أدى الأمانة وأبلغ الرسالة . فلا نلومن إلا أنفسنا إذا كان فينا ضعف فى العقيدة وتخاذل فى الإيمان ونقص فى الهمة وفتور فى العزيمة .

لقد أتى أمر الله فلاتستعجلوه . إذ كان لابد من إعداد العدة ، وتجنيد الشعب للمعركة . وغرس بذرة التحرير فى قلب كل مواطن ، لتصبح الحرية عقيدة وهدفاً ، ولتكون الحرب المقدسة وسيلة وسبيلا . . نرحب بالموت العزيز فى سبيل الله وفى سبيل الوطن : ومن مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون أرضه فهو شهيد ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد .

وإننا لن نقنع بتحطيم هذا العدو وسحقه حتى يغرب عن بلادنا ، ولكنا نعلن العالم أجمع أننا نحب السلام ، ونعلم أنه الحق ، ونعمل على تحقيقه بكل ما أوتينا من قوة — ولو قدر لغاصب محتل أن يجور على حدودنا أو يغتصب بضعة من جسم بلادنا ، فليكن على بينة من أمره . فإن كل قريته ستقاتله ، وكل مدينة ستقف فى سبيله ، ومن كل شبر فى أرضنا تندلع نار تحرقه ، فإن هذا أمر الله :

(وَقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

وإنه — سبحانه — لقريب يرى ويسمع أننا إذ نريد الجلاء والسلام ، لانعتدى على أحد ، ولا نفكر فى الجور على أحد ، بل نحن المعتدى علينا فى وطننا ، ونحن المعذبون فى أرضنا ، ونحن الذين أريد بنا الذلة — أريد بنا الذلة ونحن الأعزة — أعزة بحكم الشرع وحكم الدين وحكم المنطق وحكم التاريخ وحكم القانون السماوى الذى أنزل الإسلام ديناً للسلام .

ولكن هل تتحقق العزة والسيادة بالكلام ؟

وهل يكون الجهاد كلاماً ؟

إن الأمر جد ، والكلام لغو وعبث . وإن هذه الثورة عمل خالص لوجه الله ، وجهاد صادق فى سبيل الله — وهذا العمل يقتضى أن نتسلح بالإيمان ، وأن نتسلح بالاتحاد ، وأن نتحرر من الخوف ، وأن نعمل فى نظام حتى نشعر بأننا نتقدم فى كل ساعة وفى كل يوم . فتكون المعركة الفاصلة ، وتكون الضربة القاضية ، ويكون الشعب والجيش هما سبيل الخلاص .

ألا فلنذكر جميعاً قول العلى العظيم : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) ؛ وإن لجان المواطنين من أجل المعركة التى يتدافع الشباب والشيوخ والنساء ألوفاً للانضمام إليها ، لتقيم الدليل القاطع على أن شعب مصر كله قد باع نفسه لله ، فحقق بذلك الشطر الأول وبقى الشطر الثانى . بقى الجهاد بالمال ، بقى البذل فى سبيل الله والوطن ؛ وما تنفقوا من شىء يوف إليكم وأنتم لاتظلمون .

فياأهل مصر جميعاً — أجيبوا داعى الله إذا دعاكم لما يحييكم ، وكفانا ما نرى من خسف وهوان للمسلمين ، وضياع لأوطانهم ، وحسبنا فلسطين — هذه الجارة العزيزة الشهيدة التى لم تجد لنفسها قيادة ، وحرمها هذا المستعمر نفسه من كل توجيه وهداية ، فقد أخذ على نفسه عهداً بأن ينشئ لصهيون وطناً ؛ وإنى لأعجب كيف وفّى بعهده هذه المرة — ولكنه نفذ العهد وأقام إسرائيل لأن له فيها مصلحة ، وتبدأ هذه المصلحة بأن هذا المستعمر لم يقوعلى عداء إسرائيل ، وتهدف هذ المصلحة إلى القضاء على وحدة الدول العربية وتماسكها ، هذه الدول التى بدأ فيها الوعى ، وبدأ فيها الشعور بالمسئولية ، وبدأ فيها الشعور بالخطر ، ونبتت فيها بذرة الوحدة الروحية ، فأراد الاستعمار تحطيم هذه الوحدة ،

فسمح لهذه الدويلة بأن تقوم ، وهو يعلم فيما بينه وبين نفسه أنها مهما وصلت من قوة فلن ترفع رأسها فى وجهه . ولن تهدد مصالحه فى الشرق ، ولكن يكفيه أن تبقى هذه الدويلة غصة فى الحلق وشوكة فى جنب العرب تسهر على قطع صلات الجوار ، وتقضى على روابط العمومة .. وأعجب من ذلك أن هذا العدو قد وجد من ينافسه فى ذلك التحبب الرخيص . وهذا التدليل وتلك المساندة لإسرائيل ، حتى أصبحت مركزاً لتنافس المحبين على حساب المسلمين أجمعين .

وإننى لأدهش كل الدهشة حين أذكر أن هذه المساعدة كلها من دول مسيحية كان الأجدر بها أن تكون أكثر حرباً وأكثر عداوة لإسرائيل ، فقد عانت المسيحية من آل صهيون أكثر مما عانى المسلمون .. إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور !

وإذا كنا نادى فى مصر بالتحرر . فإن دعوة التحرر يجب أن ندعو بها لهذه الدول حتى تتحرر من سلطان أفعى صهيون ، فقد استعبدتهم باحتكار الأسواق الدولية ، هذا الاحتكار الذى جعل ساسة هذه الدول لايبرمون أمراً ولايقطعون برأى إلا بما تقضى به مصلحة إسرائيل ومن ورائها خزائن الصهيونية . . وياضيعة الدول العظمى إذا كانت قد هانت إلى هذا الحد من المادية الذليلة !

إن هذه الثورة . أيها المسلمون ، امتداد لثورة سيدنا محمد ضد الظلم والطغيان على أية صورة ، وهى حرب على الفساد والضعف والاستكانة فى كل بلد عربى وفى كل بلد إسلامى .

هكذا قلت فى الظهران على شاطئ الخليج العربى ، وقلت هذا على ضفة القنال بعد عودتى من الحج منذ سنوات . . . قلته بإحساس ملايين المسلمين الذين رأينا منهم فى مكة نحو ٣/٤ مليون ،

وسمعنا منهم أن ثورة مصر لاتقيدها حدود . فهى انتفاضة الإسلام وانبعاث العروبة ، وهى ربط لهذا الشرق الذى تتابعت عليه المحن ، لالقوة أعدائه . ولكن لتخاذل أبنائه وتفكك جماعاته ، وجهل المسلمين بقدر أنفسهم .

لقد ثار النبى بأمر ربه ثورة قوية مؤمنة . على الجاهلية وتقاليدها وعلى أوضاعها المقلوبة، وعلى أصنامها المعبودة . . وكانت ثورته على الفساد فى كل ميدان ، وكانت رسالته رحمة للبشرية فى كل زمان : فهدانا إلى عبادة الله وحده ، ونظم حياتنا على قواعد الحق والعدل والحرية والمساواة .

ثم قال سبحانه لنبيه ورسوله :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ)

جرت عادة الأمم الراغبة فى التقدم . أن تبحث لها عن أمة ذات حضارة ، فتقلدها ، ثم تهضم هذا التقليد فى عصبيتها ، ثم تمضى بما اقتبست وما قلدت فى الطريق إلى الأمام .

ولكن الأمة المحمدية قد خرجت على هذه القاعدة . ولم تقبل أن تتدرج فى هذه المراحل ، فإن رسالتها جاءت متحررة ، وكانت شريعتها لها خاصة ، شريعة لخير أمة أخرجت للناس ، أمة دينها قيم ، وصراطها مستقيم ، وعقيدتها ربانية ، لاشرقية ولاغربية ، وعنها أخذت هذه الثورة ، وفى أضوائها تتقدم مصر الجمهورية العربية المتحدة . .

إننا — أتباع محمد — من هذا النبع نلتمس المدد ، وعلى هدى هذا النبى تمضى الثورة ، عاملة بالكتاب والسنة ، واعية لأحكام الله وتعاليمه

لمصطفاه . ترى كيف أراد سبحانه أن يدخل الطمأنينة فى قلب رسوله ، وبالطمأنينة يدعم ثقته . وثقته إيمانه بالنجاح . نجاح الثورة والدعوة .

قال تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

لهذا كان المصطفى يطيل القيام ويطيل السجود . وكان يطيل التهجد ويطيل البكاء ، بين يدى ربه . . حتى أشفق عليه صحابته ، وسألوه أن يترفق ، فقد فضله الله على خلقه ، وما أنت يا رسول الله بحاجة إلى مزيد من فضله .

فكان يجيبهم بقوله عليه الصلاة والسلام :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ . .

هل يعنى محمد بهذا السؤال نفسه ؟ . .

وهل كان الخطاب القدسى له وحده ؟

وهل كان الأمر الإلهى لشخصه فحسب ؟

إنه مبعوث للناس كافة ، وجبريل ينزل عليه بالوحى آية بعد آية .

ولكن الوحى انقطع فجأة . وطال انتظار النبى للوحى . وأجمع الكفار على أن رب محمد قد ودّعه ، وأنه لن يستطيع مواصلة دعوته . .

وحزن الرسول لذلك حزناً شديداً . فقد كان يأتي من قومه العذاب ، ولكنه لم يكترث بما كان يلاقيه . بل كان حزنه الأليم حرصاً على شرف الوحي وأمانة الرسالة . لاحرصاً على نفسه أو على الدنيا جميعاً .

لقد هيأ الله لنبيه امتحاناً يختبر به صبره ويقيس مدى احتماله لأعباء الرسالة . ويزيده ثباتاً في الموقف الصعب .

ثم أقسم له سبحانه بالضحى . أي بالنور . وبالليل أي بالظلام . . أنه سبحانه لم يودعه ولم يكرهه . ولم يهجره . فإنما الأعمال بخواتيمها . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى .

فاذكرني يا محمد وأنت تحمي اليتيم . واذكرني وأنت تجيب السائلين . واذكرني متحدثاً بنعمتي ، تحقيقاً لآيتي :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

لماذا لا نتدبر هذه الآيات ؟

إنني أرى فيها الخطة الحكيمة لبناء المجتمع . على أساس التكافل والبر ، والتسليم لله . والصبر على المكروه . وحاشا لله أن يمن على رسوله ، بأنه كان يتيماً فأكرمه أو كان ضالاً فهداه أو كان عائلا فأغناه . لم يكن هذا منًّا ولكن الله جلت مشيئته ، أراد أن يضع لنا دستوراً عملياً في الرحمة : الرحمة الشاملة التي يجب أن نحيط بها اليتيم ومن في حكمه ، والفقير ومن يعول . . ولاسبيل إلى تجاهل هذه الأوامر الإلهية ، فإن الله لايرضى أن ننسى مسئوليتنا في هذه الأمة . ولايسمح لنا بأن نغفل عن التحدث بنعمته لحظة واحدة .

فإن أردتم مزيداً من النور . فدونكم تنظيم شريعتكم لعلاقات الخلق ، ووضوح الواجب والحق ، بين أفراد الأسرة ، وبين سائر الأمة .

لقد جعلت هذه الشريعة أساس عبادة الله التعاون والتراحم ،

وأوضحت مسئولية الفرد في عنق الجماعة . وأن الفرد مع الجماعة تأخذ منه وتعطيه ، وتحميه وتحتمي فيه.وأقامت رسالة محمد بناءها على قاعدتي : الإيمان والإحسان . وأعلنت أن الله لايكفيه من عبده المخلص صلاة ونسك، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وحكمته فى ذلك أن ينصرف الناس بعد العبادة لمسئولياتهم ، لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله . فعليهم أن يصونوا أمانة الحياة ، بالعمل المنتج كأفراد ، فتنهض الأمة كمجموعة ، وتشتد سواعدها قوة . ويتوافر لها من الوعي ما يمنع من احتكار النعمة ، فلا تكون وقفاً على الأغنياء . . ويكون لهذه الأمة من مقومات الشخصية ما يمنع فرعون وأمثاله من ادعاء الألوهية ، مستنداً إلى جاهه وثرائه وأجناده ، والجاه لله ، وهو أغنى وأعظم ، وجنده دائماً هم الغالبون .

ألا إن الله قد أنعم على الأغنياء بالمال ، وأقام الفقراء على هذه الحال ، ثم يقول سبحانه فى حديث قدسي :

[الفقراء عيالى والأغنياء وكلائى . ولا أحب أن يستبد وكلائى بعيالى] .

وكان الحديث القدسي من مرادفات بعض معانى الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) .

فالمسلم الصادق يحب لأخيه ما يحب لنفسه. والمسلم الصادق لا يخطر بباله أن يتميز على خادمه . والمسلم الصادق مسئول عن المسلمين جميعاً. والمسلم الصادق لايكسل ولايتعطل بل يكدح ويعمل ، فإذا عاقه حائل فالوطن كله فى عونه ، يؤمنه ، ويتواصى به خيراً ، والدولة تبذل له ما يحفظ عليه كرامته وعزته . فلا فضل اليوم لأحد على أحد . فهذا بلدنا جميعاً ، وما الذى أعطى عن سعة . بأفضل أجراً ممن أخذ عن حاجة .

وإذا أردتم أن تعرفوا المثل الأعلى لقادة ثورتكم ، فإنى أرجو أن تذكروا معى كيف بعث محمد النبى الأمى فى أمة متفرقة تقتلها الحروب والأحقاد والضغائن فى أرض صحراء جرداء ، ولكنه استطاع أن يجمع شمل أمته . وأن يبنى منها أمة قوية متماسكة كان لها النصر . وكانت لها السيادة بقوة الإيمان وعظمة الجهاد ، هذا مثل الجماعة . أما مثل الفرد ففى الرسول نفسه ، لقد كان أمياً ، وكان فقيراً ، وكان يتيماً ، وهذه كلها لو تجمعت فى فرد لما كان له أى أمل فى أى نجاح . ولكنه عليه الصلاة والسلام كان مثلا فى الصبر والكفاح وقوة الاحتمال . وتذكر الآن قوله لعمه أبى طالب وهو يذكر له ما يتوعده به الكافرون . . قال صلوات الله وسلامه عليه : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

يجب أن نقتدى بهذه التعاليم التى اتبعها السلف الصالح . فكان لهم العز ، وكان النصر حليفهم . ولن يتيسر لنا ذلك إلا إذا عرف كل منا واجبه نحو ربه فأداه . إنها الصلاة التى تصل بين العبد وربه ، وتصل قلب المؤمن بالمؤمن وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

إنى أدعو لأن يحاسب كل منا نفسه آخر يومه ، فيم أنفق هذا اليوم ؟ وأى خدمة أداها لوطنه ؟ فإذا استطعنا هذا أمكننا أن نكون قوة مؤمنة تستحق النصر والحرية .

الفصل السادس

الإسلام يأبى السلبية

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،
فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع
فبقلبه ، وذلك أضعف الأيمان »

[حديث شريف]

عندما نقول إن الإسلام يأبى السلبية فذلك يعني أننا نشعر بحساسية مرهفة إزاء اتهام باطل موجه إلى الإسلام ، فنقف لندافع عنه .

وفي موقف الدفاع ، يفقد الإنسان قوة المبادأة ، وينتظر دائماً الهجوم ، ثم يقف دائماً موقف الدفاع ، مستشعراً ضعفاً لايحسه إلا ضعيف . فإذا نحن آمنا بالإسلام حق الإيمان ، وإذا نحن آمنا بقوة مبادئ هذا الدين القيم ، وإذا نحن عشنا الحياة الإسلامية الصحيحة بكل ما فيها من قيم إنسانية خالدة ، فسنقف دائماً موقف القوة ، ويجد الذين يتقولون على الإسلام أنفسهم في موقف الدفاع . . . وعندما تعود إلينا قوة المبادأة . . هذه القوة التي فقدناها في غفلة من الزمن حين قامت الصناعة في الغرب ، وحين تمكن الغرب من الشرق ، وتسلل إلى أرضنا من خلال ضعف العقيدة والتحلل من الدين ، والغرور بالحياة الدنيا .

إننا حين نؤمن بهذا الدين المتين ، ونزن بفطنة العرب إمكانيات هذه المنطقة . ثم نعمل على تصنيعها بقوة مبادئنا . . يوم ندرك هذا فتأكدوا أن القوة المادية والقوة الروحية الكامنة في هذه البقعة ، سوف تضعف بجانبها

كل قوة . ثم تعود عجلة الزمن إلى دورتها الطبيعة. وتعود إلى هذه الأمة وحدتها . وتستأنف رسالتها فى هداية البشرية إلى أعز حياة . وعندها لايتقول عنا الصهاينة وغيرهم من أعداء ديننا الكفار والمشركين حينما يتهمون المسلمين بأنهم قوم سلبيون أو متواكلون أو متخلفون . أو كل هذا جميعاً .

إن من يقف موقف المدافع . إنما يحاول دائماً تبرير موقفه إزاء تهجم الآخرين . وعليه بهذا الوضع أن يتقبل اللوم أو يتعرض للهجوم . وهو فى منطقه دائماً ضعيف . وما يقوله الضعيف لايسمعه أحد . أما حديث الأقوياء . أما حديث المؤمنين . أما حديث العاملين المخلصين .فهو يجد دائماً الأذن الصاغية . وهذه مصر الجمهورية العربية المتحدة . قد أخذت بقوة المبادأة ، وملكت زمام القوة المادية مرتبطة بالقوة الروحية . فأصبحت كلمتها تنطلق من القاهرة فتجد العالم كله آذاناً صاغية .

ولقد حاولنا كثيراً فى الماضى أن ندافع عن عناصر القوة والحق فى الإسلام . وكان المدافع يلتمس أن يصدقه الآخرون ، وهو يدعو إلى دين إيجابى يقول فيه أعداؤه إنه دين سلبى .

وإننى لأذكر فى هذا المقام أن العلامة جمال الدين الأفغانى عندما نُفى من مصر إلى تركيا . بسبب دعوته القوية المؤمنة إلى هذا الدين المتين . . أذكر أنه عندما قابل السلطان عبد الحميد — خليفة المسلمين فى ذلك الحين — وقد استشعر السلطان فى نفسه خيفة منه . وخشى أن يقول العالم الأفغانى قولة حق فى حكم السلطان المتداعى ،قال السلطان للعالم :

لماذا ياشيخنا لاتذهب إلى اليابان مثلا لتدعو أهلها إلى الإسلام ، والقوم هناك يبحثون عن دين ؟

فأجاب العالم الثائر بقوله :

هل أذهب إلى اليابان أدعو أهلها إلى الإسلام كما يجب أن يكون ، أو أدعوهم إلى الإسلام الذى يطبق فى البلاد الإسلامية ؟

فعجب السلطان لهذا السؤال ثم قال :

حدثنى ياشيخنا عن الفرق . . حدثنى عن العلاقة بين هذا القول وبين دعوة أهل اليابان إلى الإسلام .

فأجاب الأفغانى قائلا :

لو دعوتهم إلى الإسلام كما يجب أن يكون ، فسوف يقولون اذهب يا رجل وادع قومك إلى هذه المبادئ ، فإن اتبعوك فتعال وادعنا إلى هذا الدين .. وإذا أنا دعوتهم إلى الإسلام المطبق فى بلادنا قالوا إنهم فى غير ما حاجة إلى هذا الدين ، وخير لهم أن يبقوا كما هم . . بغير دين ! .

وإننى لأتساءل الآن . . لماذا قال الأفغانى هذا القول فى ذلك الحين ؟

لقد كان العالم الثائر يترجم عن واقع المسلمين ، وعن حال التطبيق لمبادئ الإسلام ، وما انتهت إليه فى عهد خلافة السلطان عبد الحميد . . عندما بدأت الخلافة الإسلامية تنحدر إلى الهوان ، وتسير من سئ إلى أسوأ ، حين أفلح الغرب فى زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ، وحين سلط الغرب عليهم الشهوات . . بعدها خارت العزائم ، فخفت صوت المسلمين ومن ذا الذى يستمع إلى ضعيف ؟ . .

من هنا نبدأ الحديث . .

أنت حين تكون حراً عزيزاً ، ثم تدعو إلى الحرية والعزة . . وحين تكون قوياً ثم تدعو إلى القوة .. سوف يسعى الناس إلى سماعك ، ويفتحون قلوبهم لدعوتك .لاتحاول أبداً أن تدعو إلى حق وعدل وقوة وعزة ، وأنت تعيش الباطل وتتجرع الظلم ضعيفاً ذليلا . إن ذلك تناقض ليس بعده تناقض . . .

فإذا قلت إن الإسلام يأبى السلبية . فلست أقف موقف المدافع .
فإن إيجابية الإسلام أقوى من كل دفاع ، وقد أظهره الله على الدين كله ،
وحسبه أنه الدين عند الله ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه . ويوم
يغلب أتباعه على أمرهم ، فليس هذا سلبية فى الإسلام ، وإنما هى
سلبية فى المسلمين ، تداعت عليهم الأمم ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا
على الناس ؛ لأنهم غفلوا عن إيجابية دينهم ، واتبعوا سادتهم وكبراءهم ،
فأضلوهم السبيل . . وإلا فكيف يغلب قوم نزلت فيهم وعليهم الآية
الكريمة :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

إنى أتحدث عن تفاصيل إيجابية الإسلام . . هذه الإيجابية الكاملة
الشاملة التى كانت وستظل سببا فى وجود أعداء للإسلام .

لقد كان للإسلام دائماً أعداء فى العلانية ، وكان كفيلا بهم ،
فقام أجدادكم فى صدر الرسالة ينشرون النور ، ولم يقبع الإسلام فى
الجزيرة العربية ، ولكنه انطلق على الخط العريض من الصين حتى
فرنسا ، فهل هناك حقيقة أروع للدعوة الإيجابية من هذه الحقيقة الخالدة ؟

من قال إن الإسلام كان أو سيكون سلبياً فى أى زمان وفى أى
مكان ؟

إنه الدين الوحيد المنزل لهداية البشر كافة ، وبناء حياة الإنسان
على الإيمان والعمل . إنه لا يرضى بالإيمان وحده ، فما من آية نزلت
فى القرآن الكريم داعية إلى الإيمان إلا كان العمل ، والعمل الصالح
بالذات ، مرادفاً فى اللفظ والمعنى للإيمان ، وحسب الإسلام إيجابية أنه
لا رهبانية فيه ، وأن العمل فى شريعة محمد عبادة . وأن فلسفة الثورة
الإسلامية على البطالة والتواكل قد اتخذت شعارها من الآية الكريمة :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

ومن قوله تعالى فى الحديث القدسى : [عبدى حرك يدك أرزقك] .

وقوله صلوات الله عليه : « ما أكل أحد طعاماً أفضل من عمل يده » .

وفى القرآن ، وفى الحديث ، كثير من الحض على العمل ، والتنفير من الكسل ، والتحريض على الكفاح . . والجهد . . والعرق .

ثم يرحم الله عبداً نام ويداه كالتان من التعب كما يقول نبينا ، نبى العمل .

كيف يكون الإسلام ديناً سلبيًّا ، وهو الذى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؟

إن الإسلام لو ترك أهله على إيمانهم فقط لما تجاوز هذا الدين حدود البقعة التى نزل فيها، ولكنه انطلق كما أنزل فى المعمورة كلها ، فدخل الناس فيه أفواجاً ، لأنهم وجدوه دين إيمان وعمل .

وتحضرنى الآن عبارة قالها الكاتب الإيرلندى برناردشو : « لقد وضعت دين محمد دائماً موضع التقدير والإجلال ، فإنه أفضل دين متطور قادر على هضم جميع المدنيات ، وهو الدين الوحيد الذى ساوى بين الناس . إننى أرى كثيراً من بنى وطنى يدخلون هذا الدين ، وأرى أوربا داخلة فى هذا الدين ، شاءت أولم تشأ . فما أحوج العالم اليوم إلى رجل فى مثل شخصية محمد ، لينقذه من الحرب ، ويغذيه بالإيمان ، ويحييه بالعمل ، وينصفه بالعدل ، ويبدل خوفه أمناً ، ولايفرق بين الأبيض والأسود ، ويجعل الفرصة المتكافئة أساساً للحياة » .

أية سلبية يمكن أن تلحق بمثل هذا الدين ؟

إن الفيلسوف الإيرلندى قد تحدث عن إيجابية الإسلام أفضل مما يتحدث علماء المسلمين . . لقد كشفت بصيرة هذا الكاتب عن جوهر الإسلام ، فاعترف . . ثم تمنى أن يوجد رجل يقتدى بمحمد ، لينشر السلام ، والإيمان ، والعمل ، والعدل ، والمساواة بين الناس ، وأن الله لاينظر إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم .

« بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » . . أى ظهر الإسلام على كل دين قوياً سريع الانتشار بالحق والعدل والمساواة والخير ، ليس بالسيف كما يدعون ، وكانت إيجابيته التى أذهلت العالم سبباً فى وجود أعداء لهذا الدين فى العلن والسر . أما الذين ناصبوا هذا الدين العداء علانية ، فقد تصدى لهم الأجداد شرقاً وغرباً حتى رفعوا راية التوحيد فى المنطقة الممتدة من الصين حتى فرنسا . عندما كانت إيجابية المؤمنين قائمة على جوهر هذا الدين ، فأعطاهم القدرة على المبادأة ، أمدهم الله بنصر من عنده . فدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

أما أعداء الإسلام فى السر ، وهم الذين يحاربون الإسلام من وراء جدر ، فهم الذين يعنيهم القرآن الكريم بقول الله تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) .

هؤلاء هم الذين كانوا ولا يزالون يعملون فى الظلام لهدم هذا الدين ، فقد سعوا سعيهم إلى اختلاق أحاديث الرسول العربى الأمين ، وعمدوا إلى تأويل التفاسير إلى المعانى التى تسىء إلى جوهر الإسلام . إنهم لايعلمون عمق الحكمة الربانية فى القول الحكيم :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) .

ولكنهم ظلوا فى غيهم :

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ما هى الإسرائيليات التى أضيفت إلى معانى القرآن ؟ وما هى الدسائس الفكرية التى أدخلت على التفاسير فأشاعوا عن الإسلام ... دين العمل والجهاد والتقدم والرحمة والنور — أنه دين سلبى ، والله من ورائهم محيط ، ويوجه إليهم القول الحكيم :

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) .

إن هذه الحرب الخفية هى التى جعلتنا نأتى اليوم لنقدم البراهين التى تنفى عن الإسلام السلبية ، وهو الدين الوحيد الذى جمع كل الأديان ، وتميز عليها بأنه دين الله الذى أراده رحمة للبشرية ، فنزل للناس كافة ، وذلك أعلى مثل فى الإيجابية .

ويكفى أن نعلم قبل ذلك ، أو بعد ذلك أن « لارهبانية فى الإسلام» فالإسلام الذى يقدم السعى فى طلب الرزق على الصلاة والصوم ليس ديناً سلبياً .

والإسلام الذى يبدأ بحرية الفكر وحرية العقيدة ليس ديناً سلبياً .

والإسلام الذى ينادى بالعزة لله ورسوله والمؤمنين ليس ديناً سلبياً .

فالعزة لايمكن أن تكون للسلبيين ، لأنها لاتقوم إلا بالقوة والعمل والحرية والذود عن شرف الوطن وكرامة المجتمع الإسلامى ، ليكون مجتمع الأمة التى كرمها الله بقوله الحكيم :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

هذا الدين الذى يقول نبيه العربى الأمين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ليس ديناً سلبياً .

ثم يقول الرسول الكريم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . . فماذا فى ذلك من سلبية ؟

هذا الدين قد خلق أمة من العدم ، ورفع رايتها فوق الأمم ، وجعل المستضعفين أئمة ، يوم سادوا بمبادئهم الأرض . ولم تكن سيادة العرب — كما قدمنا — بحد السيف ، أو بالجيوش والقنابل الذرية ، وإنما كانت سيادة تقوم على مبادئ ، وعلى أخلاق ، تلزم كل فرد بمسئوليته الأولى عن العمل بهذه المبادئ ، والسلوك على نهج هذه الأخلاق ، بعد أن يدربه الله سبحانه على طريقته وبأسلوبه ، فيصبح قوة تشعر بالمسئولية ، وتحس اليقين ، وتؤمن بالله ورسوله ، وتعمل بما أمر به الله ، وما أمر الله رسوله إلا بأن يكون رحمة للناس كافة . . لم يقل للمسلمين فقط ، وإنما جعل الرحمة شاملة كل إنسان ، فأين السلبية فى رسالة أشرف المرسلين ؟

ونحن فى مجال الرسالة ، أيها العرب ، يجب أن نسأل أنفسنا أسئلة بسيطة سهلة : ما جوهر هذه الرسالة؟ .. ما هى أهدافها القريبة والبعيدة؟.. ومن الأجوبة البسيطة أيضاً نستطيع التعرف على إيجابية الإسلام .

إن بنى إسرائيل ، قاتلهم الله ، قد حاولوا أن يدسوا على الإسلام مبادئ التواكل ، وهم يجهلون قوله تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) .

ولكن محاولاتهم لم تستطع أن تفت فى عضدنا ، ولم تستطع أن تشيع الانحلال بين الشعوب الإسلامية؛ التى آمنت بدين الحق والقوة والحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية معاً .

وفى مناسبة الأسئلة البسيطة والأجوبة البسيطة أذكر حديثاً لعمر ابن الخطاب يقول :

كنا جلوساً فى حضرة النبي الكريم ، فأقبل رجل وجهه أشد بياضا من اللبن ، وشعره أشد سواداً من الليل ، يرتدى ثوباً ناصع البياض ، وجلس أمام النبي ، حتى التصقت ركبتاهما وسأله : ما الإسلام يا محمد ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن تؤدى الصلاة والزكاة ، وأن تصوم رمضان ، والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

قال الرجل : صدقت يا محمد ، وما هو الإحسان ؟

فأجاب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : صدقت يا محمد .

قال عمر : وانصرف الرجل، ونحن نعجب للسائل المصدق ، فقال لى رسول الله : أتعلم من هذا ياعمر ؟ . . قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا جبريل جاءكم يعلمكم أمور دينكم .

يجب أن نذكر هذه التعاليم وأمثالها ، لنعرف ما الإسلام ، وما الإحسان ؟ وما الطريق إلى أن أعبد الله كأننى أراه ، فإن لم أكن أراه فهو يرانى ؟

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، وهو دستور الإسلام الذى لا تبديل فيه ، فمن وضعه أمامه سار به إلى عز الدارين ، ومن تركه

ألقى نفسه فى النار ، ذلك لأنه دين يحمل مبادئ العزة والكرامة والعدل والرحمة والمساواة ، وهى مبادئ لايمكن تحقيقها غيبيًّا ، وإنما هى عين الإيجابية ، وطريق الإيمان والعمل .

يجب أن نعرف الغرض الحقيقى من دعوة الإسلام . . أهى دعوة إلى التعصب ؟

لا إنه دين الرحمة للبشرية جميعاً .

أهى دعوة لسيادة مخلوق على مخلوق ؟ . .

أبداً . إن العبودية لله وحده ولاشريك له . إنه فى المجال العالمى — ذلك المجال المضطرب لأنه لم يسلم كله بعد — يقول الإسلام فى دستوره الأعلى :

(يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

وليس أغناكم ، وليس أقواكم ، وليس أكثركم تسلحاً بالذرة .

إنه دين السلام الحقيقى . . دين حرية الفرد ، وحرية الفكر ، ولايقبل مطلقاً أن يفرض إنسان رأيه على إنسان ، فقد كفل لكل مخلوق حريته وكرامته ووجوده .

يجب أن نعرف أن التربية الأساسية الحقيقية هى التربية الإسلامية ، التربية التى تجعل من كل فرد إنساناً لايمكن أن يتحول عن عقيدته ، لأنه آمن بمبادئ وقيم لايمكن لأى مبدأ أو قانون بشرى أن يرتقى إليها كائنة ما كانت هذه المبادئ أو تلك القوانين ، مستوردة من هنا أو من هناك . . فإذا عرفتم أننا لايمكن أن نهزم أبداً إذا نشأنا على تربية إسلامية ، فإننا لايمكن أن نخشى على الفرد المسلم ولو كان فى عقر دار أولئك الذين

يتقولون على الإسلام . . ولكن الذى نخافه هو مصير المنحرفين الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والذين يستعدون أعداء الإسلام على المسلمين . أما الذين تربوا ونشأوا على المبادئ العليا ، فلا يمكن أن يخشى عليهم .

فليكن من واجبنا إذن أن نبنى كما بنى سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — بناء لم يقم على رمال ، وإنما قام على أساس قوى متين ، لاينفذ إليه الباطل ، ولا يرتقى الشك إلى قوته ، بناء قال فيه سبحانه وتعالى :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

ثم قال جلت حكمته :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

قال النبى هذه الآية الكريمة فى حجة الوداع ، ثم سأل أتباعه المؤتمرين فى عرفة : ألا هل بلغت ؟ . . قالوا : نعم ، يا رسول الله . قال اللهم فاشهد ، وكررها النبى ثلاثاً ، ثم قال بعد الثلاث : ألا فليبلغ الحاضر منكم الغائب .

وهكذا أشهد النبى علينا الله ، وأشهد الملائكة ، وترك لنا أمانة الدعوة إلى هذا الدين القيم ، حتى ينتهى هذا العالم .

تصوروا هذه الرسالة ، وهذه الدعوة ، وهذه الأمانة ، وهذه التربية الأساسية الحقيقية للمجتمع الإسلامى الذى يجب أن يستأنف حياة الآباء والأجداد ، إنكم لن تجدوا فى ذلك كله أو بعضه أقل القليل من السلبية . مرة أخرى أؤكد لكم أننى لن أخشى على ابنى ما دمت أنشئه

على مبادئ الإسلام . . فإن من يريد أن يحوله عن عقيدته لابد أن يأتى له بمبادئ أقوى من مبادئ الإسلام . . وهيهات !

حاشا لله أن تكون على أرضه مبادئ أقوى من دينه ولا أحكم من رسالته التى أنزلها رحمة للعالمين .

ماذا يريد الإسلام ؟

كيف نستطيع أن نلمس أن الإسلام هو التربية الإنسانية المثلى للفرد ، والمجتمع ، والأمة . . والعالم أجمع ؟

إن الإسلام يريد شيئاً واحداً ، هو الرحمة بكل هؤلاء ، لأن الله قد اختار لنفسه صفة الرحمن الرحيم . . واهب الرحمة لكل قلب ، وهو الذى وسعت رحمته كل شىء ، وهو الذى يربط بينه تعالى وبين عباده القائلين :

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) .

فبغير رحمتك يا رحمن سنضل الطريق . . نعم ، فهذه الرحمة متى دخلت إلى قلب الإنسان عرف الطريق وكما أن الرحمة مصدر النور . . . هى فى الوقت نفسه مصدر القوة ، فالرحمة لاتصدر إلا من القوى . . والعاجز الضعيف هو الذى يستحق الرحمة ، وهو الذى نزلت من أجله رحمة الرحمن .

وإننا حين نبدأ كل عمل باسم الله ، لايغيب عن بالنا أن الله قد بدأ باسمه كل سورة من كتابه الأعظم ، ولم تحرم سورة من البدء باسم الله سوى سورة التوبة ، لأنها نزلت حرباً على المشركين والمنافقين والمفسدين فى الأرض فأولئك لايستحقون الرحمة : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ

يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقتَّلُوا أَوْ يُصلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) .

والآن ، تعالوا بنا نبحث كيف تحقق التربية الإسلامية الرحمة بالفرد والمجتمع والبشرية . .

إننى لن أتكلم فى التفاصيل فمجالها لايحد ، ولكننا ستتحدث فى الإطار العام ، فى الفلسفة والمبادئ . . والخطوط العريضة فى أركان الإسلام . . فهى مصابيح على الطريق إلى التفاصيل

قد يثير بعض الناس مسائل جانبية فى الموضوع كالزواج بأربع أو الطلاق ولماذا يباح وهو يؤدى إلى ما لاتحمد عقباه ؟ . . إلى غير ذلك من المسائل التى لايثيرها سوى الذين لايعرفون الهدف الأعلى من التربية الإسلامية .

إنهم يحاولون زعزعة العقيدة فى هذه الرسالة البناءة الإيجابية القوية ، ويحاولون تلفيق مظهر سلبى للإسلام ، حتى هذا المظهر يدل على أنهم لابصيرة لهم ، وأنهم يجهلون حقيقة المبدأ كما أنزل .

ومن الناس من فسر الإيمان بأن الموت حق ، وأن يعفو عن كثير ، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فسر ذلك بأنه التواكل ، وأن المسلمين يقولون دائماً « كله على الله » . . هؤلاء الناس يفهمون الإسلام فهماً خاطئاً ، وليس الإسلام هنا هو المخطئ ، ولكن الإنسان هو الذى خرج على العقيدة السليمة .

(إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

فإذا تغير ما بأنفسهم ، عرفوا أن إيمانى بأن الموت حق ، يدفعنى إلى الشجاعة والإقدام ، يدفعنى إلى العدو فلا أبالى ، لأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . ليس معنى ذلك أن أمشى إلى العدو بلا سلاح . وأقول إن الله سيقوينى على لقاء العدو ، كهؤلاء الإخوة الذين ذهبوا إلى لقاء الدبابات الإسرائيلية فى فلسطين عام ١٩٤٨ بالعصى . . إن علينا أن نرجع أولاً إلى قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

ونرى هنا أنه تعالى ينظم لقاء الأعداء بأن نرهبهم . . وبعد ذلك نهجم عليهم ونتقدم إلى صفوفهم ونحن مؤمنون بأن الله لن يكتب لنا إلا إحدى الحسنيين : الجنة بالشهادة أو الفوز بالنصر ، فأين السلبية فى ذلك يا قوم ؟

ليس هناك فى الدنيا إيجابية أقوى ولا أروع من هذه الإيجابية . . فإن كان هناك من يهمل معانى وأهداف دينه القويم من المسلمين ، فليس ذلك ذنب الدين . فالإسلام دين كامل ، يئس الكافرون من مقاومته أو الحد من انتشاره ، لأنه دين رحمة فى أوله وفى أوسطه وفى آخره . . كذلك حددت الآية الشريفة الموجهة إلى نبى الرحمة فى قول الله الرحيم الرحمن :

(وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالِمِينَ) .

ثم انظروا معى إلى قوله تعالى :

«لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ،

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

انظروا الإيجابية فى هذه السورة القصيرة التى تعد أبلغ وعرق دستور لتحرير الفرد والمجتمع من الخوف ومن الحاجة ، ولتحقيق الألفة فى السعى والعمل ، ثم لعبادة رب الكعبة الذى ألف بين قلوبهم ونظم عملهم الجماعى ، وأمرهم بعبادته لأنه سبحانه قد أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

ومن أجل ذلك قامت ثورتنا . . وكثيراً ما سمعتم على لسان المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر :

« إن تحرير لقمة العيش هدف سياسى من أهداف ثورتنا ، فتحرير لقمة العيش من المهانة والمرارة . . هو الأساس لبناء فرد متحرر ومجتمع متحرر . . وشعوب حرة من كل ضغط ، ومن كل عذاب ، ومن كل استغلال »

العملية كلها تبدأ بحرية الفرد . . وكل شىء يبدأ بالإنسان .

وهذا يذكرنى بعمل إيجابى شرعته الثورة فى قوانينها لتحرير لقمة العيش ، وهو منع الفصل التعسفى للعمال .

وقلنا إنه يجب أن يكون مفهوماً أن حماية العامل من الفصل التعسفى ليس تحدياً لإرادة صاحب العمل ، ولايمكن أن يكون باباً يدخل منه التهاون والإهمال إلى سلوك العامل . . وإنما هو تأمين له على مصدر رزقه ، وتحرير لقمة عيشه ، حتى لا يصبح ألعوبة فى يد انتهازى أو مستغل . . فإن تحرير لقمة العيش هو أصل الحرية ، والإنسان العبد لايمكن الاعتماد عليه ، ولا يمكن أن نبنى من أمثاله مجتمعاً ذا قيمة أو وزن فمثل هذا العبد لم تتحقق الرحمة فى حياته . . ومجتمع يتكون

منه: لا يمكن أن يكون رحيماً أو متراحماً أو قوياً أو متماسكاً .

ولنرجع البصر كرتين إلى الأمر الإلهي لكل إنسان بأن يحرر نفسه عندما ينطق الإنسان المسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، أى أنه لا يعترف بإله غير الله ولا يشرك به أحداً ، فليس معنى الشرك هنا هو فقط الزعم بأن الله ثالث ثلاثة ، وإنما يعنى أولاً الإيمان بأنه ليست هناك قوة يمكن أن تنال منى إلا بما قدر الله . . فلا سيد لى إلا الله . . ولا عبودية لمخلوق مهما كان هذا المخلوق . لا إله إلا الله . . إننى بها أشهد بحريتى . . وإننى لن أكون حراً إلا بالسيادة لله وحده ، ومن هذه السيادة أستطيع أن أكون سيداً ، وأن أكون حراً ، وأن أكون قوياً . وأن أعى قول الرسول الكريم : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

إننا من نسل آدم الذى سجدت له الملائكة . . وإن الله قد كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات . . وجعل آدم خليفة فى أرضه ، وكرم أبناءه وأمرهم بطاعته ، وأوضح لهم عز هذه الطاعة فى الحديث القدسى الشريف : « عبدى أطعنى تكن عبداً ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .

وحسب المسلم إيجابية أن يكون من أمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . ثم يبنى حياته على هذه القاعدة . .

ولكن كيف نبنيها ؟

إن ديننا أساسه الإيجابية مهما حاول أعداء الإسلام التقول على مبادئه ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، ونتنقل الآن إلى طريقة الإسلام فى بناء الفرد على أمتن قواعد الإيجابية .

هناك أسلوبان للتفكير : أسلوب من يتعجل النتائج كيفما تكن . . وأسلوب من يتعجل النتائج ، ولكنه يريد البناء على قاعدة وطيدة وأساس مكين ، حتى يضمن فى النهاية النجاح الحقيقى .

بالنسبة لمن يتعجلون النتائج كيفما تكن نجدهم يرون فى البداية الطبيعية ودون الطفرة — وسنة الحياة التطور والتدرج — استغراقاً لوقت طويل. فهم فى لهفتهم على الإسراع فى البناء لايؤمنون بالتدرج إلا فى مجال الحديث العابر ، فهم يتكلمون عن بناء الإنسان بطريقة لاتسمح للتربية والتكوين بفرصة الإصرار على البحث. . وإصرار على العمل ، وتدبير محكم ومتابعة مستمرة . . مهما طال الوقت ومهما طال الزمن فإن كل ما نراه من أبنية ضخمة هى فى الأصل مجموعة لبنات ، وكل ما نرى من أعمال ضخمة وفى الأصل مجهود أفراد ، وإن بناء الفرد لهو الصعب العسير .

بناء الفرد هو العمل الوحيد الذى لايحسب بالسنين ولكنه يحسب بالأجيال . . لابد أن ينقضى جيل حتى نتأكد من أن روح الثورة ، وروح الإصلاح ، وروح التغيير إلى أفضل . . قد وجدت المجال والمناخ الطبيعى لتثبيت مبادئها وقيمها .

وها نحن أولاء نرى قصة بنى إسرائيل مع سيدنا موسى — عليه السلام — لقد تطلب الأمر أن ينقضى جيل بعقليته وتفكيره . . تطلب الأمر أن تمضى ٤٠ سنة كاملة وهم مقيدون بعقلياتهم الوثنية والعجل الذهبى الذى صنعوه ثم عبدوه . . وما يزالون .

ومن قبل موسى نتأمل قصة سيدنا نوح ، وكيف مكث فى قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فلم يستجب منهم سوى خمسين فرداً ، حتى استغاث من الكفر ، ونادى ربه :

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) فكان الطوفان.

وكذلك كان الإسلام غريباً فى مكة . . لقد انقضى على الرسالة ٢٣ عاماً حتى انتصرت دعوة الحق فى منزلها الأول ، بعد أن اقتلعت الضلال من الجذور ، ومن الماضى الرهيب . . ثم كان البناء قوياً

ثائراً مندفعاً متجدداً . . وكان لابد أن يبنى الإسلام الفرد أول ما يبنى .

ونحن لكى ننشئ الفرد على أسس ومبادئ لابد أن نتعرف على الأسلوب الأصيل فى صورته المبسطة التى أراد الله أن تكون أسلوباً خاصاً بنا حتى لانجهد أنفسنا بالاختراع أو الاختلاق .. فالإسلام لايبنى فى فراغ .

إننا نرى الشجرة الصغيرة تنمو وحدها فى مهب الرياح ، فتكون عرضة لأن تنشأ معوجة ثم تكبر كذلك . . ولهذا فإننا فى مراحل قيامها ونموها نلجأ إلى جريدة نخل أو قطعة من خشب ، لتقوية الشجرة ومساندتها حتى يشتد عودها على الاستقامة ، فتصبح فى غنى عن الدعامة أو المساندة . . وتضحى قادرة على مواجهة الرياح الهوج شامخة صامدة ، تستطيع فى المستقبل أن تعطينا الدعامات لكى تسند غيرها من الشجيرات من الجيل الصاعد .

وهكذا درج الإسلام بأسلوبه الفطرى فى بناء الفرد ، فقد أعد له الدعائم القوية الثابتة على الإستقامة حتى يشتد عوده وتصبح الاستقامة جزءاً لايتجزأ من حياته . . ومن طبيعته . . ومن غريزته .

أولى هذه الدعائم الصلاة :

ويقفز إلى ذهنى فى هذه اللحظات حديث جرى بينى وبين أحد أولئك الذين لايكتفون بعدم الصلاة . . وإنما يناقشون على الملأ تبريرهم لهذا الخروج على طاعة الله ، وأنهم يريدون أن يشيعوا موجات التردد والتشكيك . . واحد من هؤلاء سألنى فى ملأ من الناس قائلا :

أليس الغرض من الصلاة هو النهى عن الفحشاء والمنكر ؟ . . فإذا كنا قد انتهينا عن الفحشاء والمنكر ، فما حاجتنا بعد ذلك إلى الصلاة ؟

فقلت له :

بهذا المنطق المقلوب قد يأتيني جندى فى الجيش – وهو مفروض عليه أن يواصل التدريب – حتى يكون دائماً محارباً ومقاتلا ومستعداً ، يأتى فيقول : إنني محارب ومقاتل ولا حاجة إلى التزام الأوامر . . مثل هذا الفرد لايمكن أن يقبله الجيش ، أو يكون جندياً عاملا . . له أن يسمى نفسه متطوعاً أو مناضلاً فى وقت الحرب ، ولايمكن أن نسميه جندياً . .

كذلك الذى يمتنع عن الصلاة ، وهي فريضة وأمر لايمكن أن يستقيم بغيره الدين والفرد الذى يبنيه الدين ، لايمكن أن نسميه مسلماً إن ترك الصلاة .

إن الصلاة يا أخى هى الوسيلة المثلى لتدريب الفرد على الاتصال بربه ، حتى تزيد وتقوى وتثبت هذه الصلة .. وسرعان ما تصبح عاملا أساسياً لبناء الإنسان على خشية من غضب الله ثم العمل على رضائه ، ومن بين الخشية – وهى عصب التقوى – والعمل وهو شرط الإيمان ، ويتكون الإنسان الصالح لنفسه – ولأهله – وللمجتمع الذى نعيش فيه . .

استمع صاحبى إلى هذا ، ولكنه لم يقتنع ، فعاد يسائلنى : هل أحاسب على ترك الصلاة ؟ إذا فاضلنا بين اثنين أحدهما يصلى ويفسق والثانى يتصدق ولا يصلى ، فهل تريد إقناعى بأن الأول مصيره الجنة ، والثانى مصيره النار؟

قلت : إن حساب الناس ليس من شأن الناس إنه من اختصاص الله وحده ، ولا أحسبك تريدنى على التدخل فى شئون الله . . وأنت لاتعلم ببواطن الأمور ، ولاتعلم ما يكمن فى النفوس ، وحكمك أنت قائم على الصورة التى تراها .

فلماذا نجهد أنفسنا بأسئلة لاتؤدى إلى غاية ؟ . .

ولماذا لانلتزم بأوامر الله ونواهيه إن كنا مسلمين ؟

لماذا لانحمد الله على أن منّ علينا بالإسلام ؟

والحمد هنا ليس معناه الكلام أو تقبيل اليد ظهراً وبطناً ، بل هو العمل بأوامر الله واجتناب نواهيه . قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

وانتهت جلستنا ، ومضى كل إلى شأنه ، وعدت إلى مراحل التدريب الإلهى للفرد حتى يسلم . . وحتى يصبح جديراً بالصلة بربه والصلة بالمجتمع ، والصلة العالمية بالبشرية جمعاء . إن الله أراد أن ينشئ عبده بالأسلوب الربانى ، ففرض عليه الصلاة خمس مرات فى اليوم ، يقابل فيها العبد ربه ، ويجدد عهده ، ويجأر إلى مولاه بالدعاء ، ويخشع له وتمتلئ نفسه هيبة له فيزداد قرباً من ربه وتسليماً له ، وتمسكاً به واعتماداً عليه . . رغبة فى ثوابه ، ورهبة من عقابه.. وحبًّا مخلصاً لخالقه . وتوفيقاً فى عبادته ، وتحقيقاً لرسالته — سبحانه — وتطبيقاً لأوامره التى لاتحتمل جدلا ولا مناقشة . . أفى الله شك ؟

إن الإنسان منا إذا صادق أخاً له ، وكان مخلصاً فى الصداقة ، حرص على دوامها ونأى فى كل تصرفاته عما يهدد الصداقة أو يغضب صديقه . . فما بالنا والصلة هنا بالله والصداقة لله ؟. . ماذا يكون موقف العبد من ربه إذا عصاه ، وإذا أغضبه ، وإذا أهمل واجبه ؟ كيف يلقاه؟ كيف تكون الصلة بينهما ؟ . .

اتجهوا ياقوم إلى ربكم خمس مرات فى اليوم . . هذا الاتجاه يهديكم إلى التى هى أقوم . وما يزال الفرد جاهداً فى دعم الصلة بربه . عاملاً على مرضاته ، حتى تتأثر أعماله جميعاً بهذه الخشية . . وهذه الصلة . .

فتبدو فى المجتمع على الوجه الذى يرضى الله .

هذه هى الصلاة فى جانبها الفردى . أما الجانب الجماعى ، فقد فضل الله جزاء صلاة الجماعة على جزاء صلاة الفرد بسبعين درجة ، ترغيباً للمسلمين على اللقاء فى المساجد ، عند كل صلاة مكتوبة فى وقتها المعلوم . .وعلى الطريقة التى لاتتبدل ، من إمام واحد يؤم الجميع متجهاً بهم إلى قبلة واحدة، فى صفوف مستقيمة متراصة، فى تكبير موحد ، فى حركات منظمة متناسقة .

ليس من شك فى أن ذلك تدريب على النظام ، وتقدير الوقت ، والوفاء بالموعد . . والتعارف والألفة والتعاون والتغلب على المشكلات ، وتكوين النسق الأمثل للديمقراطية فى الجماعة ، فنتواصى بالحق ، ونتكاتف على بناء المجتمع المتراحم . . وهو هدف صلاة الجماعة ، تلك الجلسات التمهيدية لصلوات العيدين ، والحلقة الأولى من التدريب للمؤتمر الأكبر فى ركن الحج .

وثانية الدعائم هى فريضة الصيام :

لكن الله لم يفرض صلاة الجماعة والصلاة الجامعة تمهيداً لمؤتمر الحج الأكبر مباشرة . . فقد لاتستطيع إليه سبيلا . . بل أراد بطريقته الرحيمة فى البناء التدرج بالإنسان . . ففرض عليه الصوم بعد الصلاة . . فرض عليه الحرمان ، وحبّب إليه جزاء هذا الحرمان وأغراه به ، ليختبر الصلة التى ربطها العبد بربه ، وليشعره بحاجة الجائعين ، وليدربه على تحمل المشاق ، وليحسن إعداده لطاعة أوامره ــ سبحانه ــ فى السر أو فى العلن ، فإذا نجح فى ذلك الامتحان وكان أميناً على عبادته ، فأدى للصيام كما يجب أن يؤدى . . أى صوم المعدة وصوم اللسان وصوم الفكر . . ودوام الذكر . . أصبح بعد ذلك مستجيباً لشروط الإنسان

الاجتماعى الذى يصلح لبنة فى بناء المجتمع . ذلك عندما يتطور التدريب من التزامات الفرد . . نحو ربه ويقوم بها ويؤديها وحده إلى تدريب أشد وأقسى . . التدريب على البذل من ذات النفس . . وهو الدخول فى حلبة ثالثة من التدريب والإعداد الإيجابى .

والزكاة هى الدعامة الثالثة لبناء الفرد المؤمن :

قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أى تعطوا الزكاة والصدقة من أحب ما تملكون وهو المال ــ وذكره فى القرآن مقدم على الجهاد بالنفس (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ) .

فليس من السهل على امرئ فى مراحل التدريب الأولى أن ينفذ الزكاة إلا بعد النجاح فى توثيق الصلة بربه أى بعد الصلاة ثم الأمانة على هذه الصلة باجتياز تدريب الصوم . . والصوم يهدى إلى عون المحتاج . . فالمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

أين السلبية فى هذا الدين يا قوم ؟

فإذا استمع القوم إلى أوامر ربهم فأطاعوا وصلوا وصاموا وزكوا وتصدقوا ، فحدثونى بعد ذلك عن المجتمع الذى يتألف من أفراد فيهم كل هذه الميزات . .

إنهم يحسنون الصلة بربهم ، ويحسنون الصلة بجماعتهم ويحسنون القيام على أموالهم وأرزاقهم ويقضون حق الله فيها : (إِنْ تُقْرِضُوا

الله قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ) وهكذا حكمه الذى لا يرد .

إن مجتمعاً كهذا لايمكن أن يكون سلبيًّا . . إنه مجتمع تستحب التضحية من أجله والفداء فى سبيله ، فلا تنفذ إليه حاجة ، فالناس بعضهم لبعض ، والغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير . . ولاتنفذ إلى هذا المجتمع تفرقة . . فليس كعطاء القادر للضعيف وسيلة تربط بين القلوب ، وتوحد بين الجهود . . وتجمع الناس على المحبة والتعاون ، ابتغاء مرضاة الله . . وحسن جزائه .

ورابعة دعائم بناء الفرد فريضة الحج :

وقد كلف الله بها من يستطيع إليها سبيلا . . .

وليست السبيل إلى الحج هى القدرة على دفع نفقاته ، وإنما هى استعداد المجتمع المحلى للدخول فى المجتمع العالمى . .

فقد فرض الحج مؤتمراً دوليًّا للمجتمع الإسلامى . .

إنه صورة الأمة الواحدة المتحررة . . أمة التوحيد التى اختارها الله لتلقى رسالته ، واختار الله منها أنبياءه ورسله . . كيف يمكن أن تبدو للعالم هذه الأمة فى مؤتمرها الأكبر ؟

لابد أن تلتقى شعوب الأمة المحمدية على خير ما تلتقى عليه الأمة فى حشد ضخم يتكون من مجتمعات متماسكة . . تتألف من أفراد أقوياء البدن والروح ، فليس الحج نزهة أو رياضة . . وإنما هو تدريب على الحشد ، وهو حقيقة عريضة لما ينبغى أن يكون تجمع المسلمين حول الكعبة ، وتجمعهم فى عرفة وأداؤهم مناسك الحج متجردين من كل شىء . ناسين كل شىء إلا الله . . وفدوا على بيته تائبين مستعدين للجهاد فى سبيله .. بعد أن يتموا أركان دينه ، فيبدو اجتماعهم قوة يفاخر بها الله ورسوله

الملائكة ، وتتحقق فيها المنافع الإسلامية الدولية ، حيث يأتمر المسلمون ويتباحثون فى مشكلات دينهم ودنياهم ، ويكونون يداً على من عاداهم ، أوفياء لمن يسالمهم . . داعين إلى الله فى العالمين . . مبشرين ومنذرين ، مبلغين رسالة نبيهم الذى بعثه الله هدى ورحمة للبشرية كلها . .

هذه لمحات سريعة عن إيجابية هذا الدين القيم المتطور المتجدد ، أردت أن تكون واضحة أمام الجيل الصاعد من شباب العرب ، ليعرفوا حقائق دينهم وجوهره الأصيل ، حتى لاتؤثر فيهم الأباطيل ، وحتى يتبين لهم الرشد من الغى ، وحتى يسلكوا بها طريق العزة التى قضى الله بها لذاته ولرسوله وللمؤمنين .

إن شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تخرج بمن ينطق بها من معسكر العبيد إلى معسكر الأحرار الذين لايعبدون إلا الله وحده لا شريك له .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له . . والصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

إن الصيام تدريب للفرد على تحمل المشاق وترويض النفس الأمارة بالسوء ، وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لله ، وهو سبحانه هو الذى يجزى به . . ولابد للفرد المسلم من اجتياز تدريب الصلاة والصوم حتى يدخل مرحلة أشد ، وهى الزكاة أى البذل ، وهو أقسى على صاحبه من أى شىء . وكلنا يعرف كيف أمضى الخليفة الأول أبو بكر الصديق مدة حكمه فى الحرب من أجل الزكاة ، فقد قبل أهل الردة الصلاة والصيام ولكن الزكاة عندهم صعبة فمنعوها ، فقام إليهم أبو بكر قائلا : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه .

ثم الحج . هذا المؤتمر الدولى العظيم الذى فرضه الله على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا .

ونحن إذا وضعنا هذه الدعائم بجانب الإنسان الفرد فى تربيته ونشأته فلابد أن يكون إنساناً إيجابياً بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى . . ينشأ قوياً . . فلا تهزه الرياح ولا تزعزع عقيدته قوة مهما بلغت هذه القوة .

هذه صورة مبسطة لإيجابية الإسلام فى بناء الفرد والجماعة والوطن والبشرية ، وهى قبل ذلك تحتاج إلى التأمل والتفكير والمتابعة لتبقى الصلة بين العبد وربه ، فتصبح الطاعة شيئاً أصيلاً فى خلقه ، ويمسى ثم يصبح عند الحديث القدسى : [عبدى أطعنى تكن عبداً ربانياً تقول للشىء كن فيكون] .

فهل بعد ذلك يستطيع العبد الربانى أن يستمع إلى من يتقول على دينه بأنه سلبى أو دعوة إلى التواكل ؟

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً !

إن دينكم دين الرحمة للناس كافة . . والرحمة هى الصفة الأولى للرحمن الرحيم ، ترونها فى فاتحة كل سور القرآن الكريم ، ومن تقاليد الإسلام العريقة أن يبدأ المسلم كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم . .

هكذا يبنى الإسلام أتباعه ليكونوا رحماء ، ويقول الحديث الشريف : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » و « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، و « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والرحمة لاتصدر من ضعيف . . فالضعيف لايهب الرحمة . . لأنه فى حاجة إليها . . أما القوى فهو الذى يستطيع أن يرحم من يستحق الرحمة . .

فكيف يمكن أن نلصق تهمة السلبية بهذا الدين الحنيف . الذى أنزله الله رحمة للعالمين ؟ . .

وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حديث شريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . « ولا يكتمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فكيف نسمى مثل هذه العلاقات الرحيمة تواكلا أو سلبية ؟

ألا فليتقول المتقولون على الإسلام ما شاءوا ، فإنهم ينطحون الصخر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، فكيف نتصور هذه القوة التى تتسم بها الرسالة المحمدية تواكلية أو سلبية ؟

إذا جئنا اليوم لنعلن أن الإسلام يأبى السلبية ، ففى ذلك اعتراف غير مباشر بادعاء من ينسبون السلبية للإسلام . . إننا لا يمكن أن نعترف بهذا الادعاء ، وعلينا أن نتعرف على جوهر ديننا ونتأمل فيه بعمق ، وسندرك أنه لا إيجابية فى أية شريعة سماوية أو قوانين وضعية بقدر ما فى هذا الدين القيم من إيجابية فى صلة العبد بربه ، وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة المجتمع بالوطن . . وصلة الوطن بالبشرية .

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قول الله العلى العظيم :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ) .

وحاشا أن يكون دين الله على شىء من السلبية . ومعاذ الله أن يكون دينكم سلبيًّا . . بل على العكس ، فإن قوة الإيجابية فى هذا الدين هى السبب الأساسى فى خوف أعدائه منه إلى حد اليأس :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) .

إن يأسهم هذا معناه فى أول الأمر وآخره أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على هضم جميع المدنيات . والتطور مع كل عصر . . والإيمان بالإنسان من كل جنس وكل ملة وكل دين . حسب هذا الدين أن ينهى عن التعصب تحقيقاً لقول الله عز وجل :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) .

حسب هذا الدين أن يضمن لكل مخلوق حرية العقيدة ، وفريضة العلم ، وحق العمل ، وحق التأمين . . وحق العدل وحق المساواة . . سوف ترتد دائماً سهام أعداء الإسلام إلى نحورهم ، لأنهم يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

الفصل السابع

صوت اليقين

«وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » .

(الإسراء : ٣٦)

معنى ذلك أنه يتعين على كل منا ، لكى يصل به الفهم والوعى إلى مرحلة الثقة ، ولكى يصل إلى مرحلة اليقين ، ألا يكتفى بما يسمع أو يرى ، بل لا بد له أن يلمس بفؤاده الذى يجمع حصيلة حواسه وفكره وشعوره . . فإن الله عز وجل ، حينما أنزل هذه الآية ، أراد أن يجمع العقل والقلب والحواس فى كلمة واحدة هى الفؤاد ، لأنه سبحانه يريد أن تكون إرادة الآدمى إرادة إنسانية كاملة ، لاترتبط إلا بماتعرف ، ولا تتحرك إلا بقدر ما تقتنع ، ولا تقتنع إلا بما تعلم أنه الحق ، ولاتقف ماليس لك به علم . . حتى تتخلص من كل شك ، وحتى تدخل مرحلة اليقين .

أذكر إلى جوار هذه الآية ، آية كريمة أخرى تحدد فى بساطة ما يجب أن نقتنع به ، ونلمسه بأفئدتنا . . أذكر قوله تعالى :

(خذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

(الأعراف ١٩٩)

لقد نزلت هذه الآية فى مجال البذل ، ولا يحول الاجتهاد من تفسيرها

فى مجال الرأى ، فقد يحول الرأى دون البذل ، ويمنع الرأى وحدة الكلمة ، ونحن فى حياتنا كثيراً ما نسمع الرأى الخاص فنحسبه رأياً عاماً ، وندخل فى متاهات ما ليس لنا به علم ، ولابد للمؤمن الحق أن يفكر ويتدبر ، ويفرق بين الرأى الشخصى ، والرأى العام ، ليعرف الطريق إلى اليقين . . يرى الحق حقاً فيتبعه ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه .

فى ٥ يونيو ١٩٦٧ أذكر أننى قد صحبت الوفد العراقى من القاهرة إلى الجبهة ، لزيارة إحدى الوحدات العسكرية الجوية ، وهبطت بنا الطائرة أرض المطار فى الساعة التاسعة إلا ربعاً ، فى حين كانت قنابل العدو تدك مدرج الطائرات ، ونحن نغادر الطائرة فى سرعة ، واندفعنا نحمى أنفسنا ولكننا فى الوقت نفسه كنا نشاهد بدء المعركة ، ونرى آثارها ، ولم تكد تبلغ الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى كانت الكارثة قد وقعت ، وانتهى كل شىء بالنسبة للمعركة الجوية . . وشهدنا الطائرة التى كنا نركبها وهى تحترق بقنابل العدو وعدت بالسيارة إلى القاهرة ، ورأيت فى ذلك اليوم الحقيقة كاملة ، حقيقة الغدر ، وهول المفاجأة . .

إننا لابد أن نتصور كل ماحدث يوم ٥ يونيو وما بعده ، حتى نعيش ساعات الهزيمة لشعب عبأ نفسه تعبئة كاملة ، وصولاً إلى شرف النصر . . لكن إرادة الله وحكمته فوق كل حكمة وكل إرادة . . وكل ما يأتى من عنده تعالى هو الخير مهما تصورناه شراً . .

إن الله قد اختص هذه الأمة بكثير من الخير . .

أرنى بلداً فى العالم كانت له ما لمصر من علاقة بالأديان السماوية . . لقد جاء اسم مصر صريحاً فى القرآن الكريم خمس مرات ، تكريماً لهذا الوادى الطيب وإعزازاً لهذا الشعب الكريم ، الذى عاش تاريخه العريق ، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قبلة العلم والإيمان ، والأصالة ، والنضال ، والصمود .

لقد تعرضت هذه المنطقة من العالم لأطماع الغزاة . وغارات الطامعين ، فلم يجدوا أمامهم مثلا فى الصمود بحق . ولم يجدوا قاعدة للنضال بحق ، أكثر من مصرنا العزيزة ، بقوة إيمانها وبطولة شعبها . . فعاشت وستبقى دائماً الصخرة التى يتحطم عليها كل معتد يريد القضاء على إيمان هذا الشعب ، ويريد تحطيم مبادئه، ويريد أن ينال من القيم والمثل العليا له .

وعندما نذكر القيم والمثل والمبادئ ، يندفع إلى خاطرى أننا حينما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وحينما وقفنا جميعاً حول جمال عبد الناصر ، مناضلا وقائداً يعلى المبادئ التى سرنا على طريقها ، كنا نقف من حول المبادئ. وكانت المبادئ هى التى تكرم الأشخاص، تكرم المؤمنين بها ، فنحن لم نكرم فرداً لذاته ، ولكن نكرم المبادئ والقيم والمثل ، وما زلنا نعتز بهذه المعانى جميعاً وقد تجسدت فى هذا القائد . . هذا المناضل الذى أعلن مبادئ الثورة الستة المشهورة . . المبادئ التى تحولت إلى أعمال ثورية ومجيدة . . نذكر جميعاً أول هذه المبادئ .

القضاء على الاستعمار :

لقد تصورنا هذا المبدأ ، بعد تحقيق الجلاء مرتين حتى عام ١٩٥٦ ، قد استنفد أغراضه . . لماذا ؟ . . لأنه قد تحقق . .

الواقع يؤكد العكس ، فإن الاستعمار قد أنشأ له فوق أرضنا قاعدة تريد أن تخطف الخبز من أفواه الكادحين ، والرزق من أيدى العاملين، والإيمان من عقيدة المؤمنين .

ويحضرنى الآن مثل رأيته فى زامبيا الشقيقة . . كنت فى زيارة رسمية لها فى عام ١٩٦٥ ودعيت إلى رحلة فى منطقة حزام النحاس . منطقة تمتد من زامبيا إلى داخل إقليم كاتنجا فى الكونغو . . سألت العاملين فى الشركة المستغلة لحزام النحاس عن إيراد مناجمه كل عام . .

وكان الجواب أن حزام النحاس ينتج سنوياً قرابة سبعمائة ألف طن من النحاس الخالص . . ويبلغ سعر الطن منه مايتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ جنيه وأحياناً يقفز إلى ٧٠٠ جنيه . . لقد رأيت ما أدهشنى وسمعت ما أذهلنى . . وتذكرت على الفور أننا كنا نعيش حقيقة كهذه فى أرضنا . . الأرض التى أجزل الله عطاءها من الثروات والخيرات . . ذكرتها وأنا أزور حزام النحاس فى زامبيا . . وقلت لنفسى : إن قضية الاستعمار لا يمكن أن تنتهى بالسهولة التى يتصورها البعض . . ومن أجل ذلك يدبر الاستعمار مؤامراته من حولنا ، ولا ييأس . . كيف يمكن أن يضحى بمثل هذه الخيرات ، وهذه المنافع ، ويترك للثورات الوطنية الحرة الصادقة تقضى على آماله فى هذه المنطقة من العالم ؟ . .

إننا نسمع فى بعض الأحيان من أعداء العدالة الاجتماعية من يقولون إنه لولا الاشتراكية لما هاجمنا الاستعمار ، وخاض ضدنا المعارك . . مثل هذا الرأى الخاص يعبر عن خطأ فكرى والدراسة الموضوعية تقتضى منا أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

هل كانت فى مصر اشتراكية عندما أغار عليها الهكسوس والمغول والتتار والاستعمار المستتر باسم الصليب ؟

هل كانت هنا اشتراكية عندما تصارعت فرنسا وإنجلترا فى معارك أبى قير البرية والبحرية لاحتلال مصر ؟

وحينما تكاتفت جميع أساطيل أوربا وجيوشها ضد الأسطول المصرى فى معركة نفارين عام ١٨٢٧ ؟

هل كانت عندنا اشتراكية ؟

لقد كان الهدف من ضرب الأسطول المصرى فى تلك المعركة هو أن تنطوى مصر داخل حدودها ، ولا تحاول أن تترابط ترابطاً عضويا مع بقية أجزاء الوطن العربى ، أو تكون قاعدة قوية فى المنطقة .. هكذا كان

شأن الاستعمار معنا دائماً ، يهاجم فينا أى بادرة من بوادر القوة . . يهاجم المبادئ والقيم والمثل التى تحمى خيرات هذا البلد ، وتحرس عقيدة هذا البلد . .

إن بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ حينما يتكلم عن أبعاد المعركة ، لا يخص بالذكر الحادث العارض الذى وقع فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ولكنه يعنى هذه الأمة العربية الممتدة إسلاماً وإخاء ومودة إلى كثير من بلاد العالم عبر القارات والمحيطات .

لقد استمعنا جميعاً إلى خطاب المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر إلى المثقفين بجامعة القاهرة يوم الخميس فى ٢٥ أبريل ١٩٦٨ وهو يقول فى يقين :

« إن الموضوع ليس هو الجلاء عن سيناء وحدها . الموضوع أكبر من هذا بكثير . . الموضوع أن نكون . . أو لا نكون » .

عندما أذكر الآن أننا حينما ارتبطنا بجمال عبد الناصر القائد فى عام ١٩٥٢ ، كنا وما زلنا نرتبط بمن يحمل المبادئ ويسير بنا ، ونسير معه ، لكى نحقق هذه المبادئ أو نفنى دونها .

لماذا ؟ . . لأن هذه المبادئ تعنى حرية الوطن ، وتعنى حرية المواطن ، وتعنى العزة التى نحسها تطبيقاً لقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون ٨)

وهذه العزة لايمكن تحقيقها بالأقوال أو بالشعارات . . وإنما تتحقق بقدر ما نناضل ، وبقدر ما يكون فى نفوسنا من تصميم ، سيكون عدونا على استعداد للتسليم .

إننا حينما نستشعر الحرية بجناحيها : الاشتراكية والديمقراطية . . نجد أننا قد ضربنا فى الديمقراطية بسهم وافر ، ونحن نتدارس مبادئ

الثورة فى مجال التطبيق . ونناقش برنامج العمل للنصر فى قلب المعركة . حتى أحس كل مواطن بأنه قادر على التعبير . ولكنه حينما يستمع إلى الرأى ، لا بد أن يفرّق بين الرأى العام والرأى الخاص ، لكى يصغى إلى ما يسمع ، ولكى يدرك معنى الآية :

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)   (الإسراء ٣٦)

حتى تعرف ما هو الحق ، وتعرف ما هو الصواب . وماهو الشك ، وما هو اليقين . إننى حينما تمثلت الآية :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »

إننى لاأردد هذه الآيات بلا رأى ولا هدى . . وإنما أريد أن أقول إننى حينما أستمع إلى قول لابد أن أعى ما أسمع .. ثم أنظر أبعاد المعركة ، فألمس بفؤادى أن معركتنا كانت وستظل دائماً هى تثبيت الاشتراكية ، طريقاً وأسلوباً إلى الكفاية والعدل . . ولكن من هم أصحاب المصلحة الحقيقة فى الكفاية والعدل ؟ . .

هنا تحضرنى صورة أمجادنا . . فى هذا المجال :

أن نقرأ أن بعض الأغنياء جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله : إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء الفقراء — وكانوا يقصدون أبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى وفقراء المسلمين — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك .

يقول سلمان الفارسى راوى الحديث : فأنزل الله تعالى :

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . « أى ملجأ » وَاصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

أى يا محمد لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزينتها . . لاتتزين يا محمد بمجالسة هؤلاء الأغنياء الذين اقترحوا أبعاد الفقراء عن مجلسك .

ولم يرد النبي عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك . ولكن نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله تعالى :

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

كانت هذه دعوة أغنياء مكة أن يتخلى النبي عن الفقراء . . الفقراء أصحاب الحق الأكبر فى المجتمع والمصلحة الحقيقية فى التغيير .

فماذا كان رد النبي على قول أغنياء مكة حينما أرادوا منه إبعاد الفقراء ؟ . يقول سلمان الفارسى رضى الله عنه : فقام النبي عليه الصلاة والسلام يلتمسهم حتى أصابهم فى آخر المسجد يذكرون الله قال : «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا ومعكم الممات » . .

صلى الله عليك يا رسول الله . . ويا من صرفت نظرك عن قول الأغنياء وقمت من مكانك وسعيت بنفسك إلى فقراء أمتك الصالحين .

أنت القائد والرسول تسعى إليهم فى مجلسهم وتجلس إليهم حامداً ربك على هذه الصحبة الطاهرة .

بغير هذا المنهج لا يمكن أن يقوم عدل حقيقى فى المجتمع . ذلك لأن الفقراء هم أصحاب المصلحة الأولى فى إقامة العدالة الاجتماعية وإليهم تتجه عين القيادة وقلبها .

ولننظر إلى أنفسنا نحن : إن كل واحد منا قد نال فرصته فى الحياة . . هذه الفرصة كانت من عرق الملايين وجهد الكادحين . ومع ذلك نحن لم نذكر بعد الآية الكريمة :

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر : ٨)

ولقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة فى تفسير هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر :

فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟

قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، قوما. فقاما معه حتى أتى داراً من الأنصار .

وسعد الأنصارى بهذا المجيء الكريم وقال فرحاً : الحمد لله .. ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى .

وقدم إليهم الأنصارى شاة وتمراً وماء عذباً فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر :

«والذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة .. أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم . . ظل بارد ورطب طيب وماء بارد » .

والله إن بدنى ليقشعر كلما ذكرت هذه الآية ، وأحس بثقل المسئولية الملقاة عاتق الثوار نحو جماهير الفلاحين والعمال . . وأذكر

على سبيل المثال أننى من قرية بمركز قويسنا كل زمامها خمسمائة فدان . وليس بين أهل قريتنا مالك واحد ، كل ملاكها من الوافدين ، وأهل القرية، من المستأجرين ، كل ثمانية أفراد يعيشون على فدان واحد . . هؤلاء الأهل عندما أذكر حديثهم وتطلعاتهم أذكر أن الواحد منهم يتخيل أحياناً أنه يملك فداناً ، فلا تكاد تسعه الدنيا . .

والآن وقد اتسعت بالثورة آمالهم . . وامتدت إلى تعليم الأبناء إلى أعلى المستويات ووفرت لهم الثورة ذلك ما داموا عاملين مجدين قادرين .

إننا يجب أن نفكر فى هؤلاء المواطنين وفى مصائر أبنائهم . . فى المستقبل الأفضل الذى يحاربنا عليه أعداؤنا .

والله إذا لم نتكاتف ولم نصمم على استمرار الثورة الاجتماعية ، وعلى وعى بحقيقة أبعاد المعركة ، وتتسع صدور بعضنا للبعض الآخر ، ويلتزم المثقفون بواجباتهم إزاء الملايين ، لا نكون جديرين بالحياة فى هذا البلد ، ولا نكون جديرين بشرف تحقيق العدالة الاجتماعية .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) .

إن أروع معانى الثورية هى الالتزام بحوائج الناس . . هذه أصدق حقيقة لفهم أبعاد معركتنا الآن . . معركة العدل الاجتماعى .

لننظر إلى قوله تعالى : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » (الحج ٤٥)

حقت كلمة الله بالهلاك لمجتمع يظلم بعضه بعضاً ، حتى بلغ

التناقض فيه أن نرى قصراً مشيداً وإلى جواره بئر معطلة لاتجود على ظمآن بجرعة ماء . . تجسيد حى للظلم الاجتماعى الذى يستوجب الهلاك .

ومن هنا كانت أهداف الإسلام كلها مجتمعة فى كلمة واحدة هى الرحمة . . والرحمة قمة العدل الاجتماعى فى مجال التطبيق . .

خذ العفو — أى ما يفيض — وأمر بالعرف — أى ما تعارف عليه الناس ، وأعرض عن الجاهلين ، عن المشككين ، عن المضللين ، حتى لا تضيع فى دوامة الرأى الخاص ، الرأى الشخصى ، الرأى الأنانى ، الذى لايحس بالالتزام ، وإنه جزء من كل . . فرد فى أمة قال الله فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران ١١٠) .

ويوم يختلف الرأى، ويصبح المعروف منكراً ، ويصبح المنكر معروفاً تكون المصيبة العظمى . . إننا فى مجال التطبيق يجب أن نلتزم بما تعارف عليه الناس ، وما تتوازن به حياة الناس ، وبما يمليه الضمير الحى ، والعقيدة السمحة ، والاهتمام أولا بصالح المجتمع ، على أسس من الأخلاق ، ومن القدوة الحسنة التى قدمها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . وإلى هؤلاء الذين يتحدثون عن الاشتراكية فى كل زمان ومكان أتجه بالسؤال : هل وجدوا بينهم إنساناً يموت مديناً ، وقد عرض عليه أن يكون له مثل الجبل ذهباً فيرفض ، لا يجدون يوم وفاته سوى درعه ليباع من أجل سداد دينه ؟

إن هذا الأمر لايقوى على احتماله أو فهمه المتشدقون بالاشتراكية قولاً لافعلا . . ولا من يقولون عن أنفسهم نحن مسلمون . بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .. إن السعى إلى الاقتراب من هذا المثل يصل بك إلى قمة

المجد . . ولكن تحقيقه عملية صعبة . . تدريب عنيف لطبيعة الإنسان عندما يبيع دنياه بدينه ، ويهاجر بدينه ومبادئه . .

(إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)
(الرعد ١١)

إذا غيرنا ما بأنفسنا ، فسيأخذ الإيمان مكان الشك ، وعندما يتوافر الإيمان فلن يكون هناك تساؤل عن الضمان .

إن الرئيس الخالد عندما نادى بالتغيير ، وكان أول من أعلن حتمية التغيير ، كان يعنى تغيير ما بالنفس ، حتى نشعر بوجودنا ، وبقيمنا ، وبمبادئنا ، وبمكانتنا ، وأن ليس هناك ما يفصل بين ماضينا ومستقبلنا ، وسيكون إصرارنا هو الضمان الوحيد للتقدم إلى ما نريد وليس إلا ما نريد . فلنجعل من النكسة العارضة فى ٥ يونيو مشعلاً يضىء أمامنا الطريق ، ويزكى شعورنا بحقنا فى أن نملك زمام أمورنا فى كل موقع . . لكى تبقى الثورة ، وتثبت المبادئ ، وترتفع القيم ، ويكون النصر من عند الله سبيلاً إلى تحقيق الكفاية والعدالة ، فى مجتمع متكافل متراحم ، ينتسب إلى خير أمة أخرجت للناس .

الفصل الثامن

محمد قدوة الدعاة

إننى أشعر الآن ، أكثر من أى وقت مضى ، بأن مسئولية الدعاة فى توعية الجماهير ، مسئولية ضخمة ، تشترط فيمن يحملها أن يعرف هذه المسئولية وكيف آلت إليه ، وماهو موضوعها ، وماهى وسيلتها ، وما هى الغاية منها فإن هذه الأمة ، كما قال محررها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر : «تقف الآن على نقطة من نقط التاريخ الحاسمة .. نقطة يمكن أن يتحدد فيها المصير ، وأن يتشكل القدر بإرادة الله التى تلهم إرادة هذه الأمة ، وتوجه خطانا جميعاً إلى سواء السبيل » .

إن مسئولية الدعاة قد بدأت منذ وقف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، يلقى خطبة الوداع ، فقال فى ختامها ما قال الله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

ثم سأل الجماهير المؤمنة المحتشدة فى مؤتمر حجة الوداع : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد . ثم كررها ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد .

وفى المرة الثالثة سألهم : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الحاضر منكم الغائب . اللهم فاشهد .

صدق رسول الله . وأشهد الله أنه أبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وكلف المؤمنين الحاضرين بتبليغ الناس دعوته ، ما بقيت الحياة . . فإذا كان هذا التكليف موجهاً إلى المؤمنين ، فما بالكم بالدعاة ؟ . . ما بالكم بالأئمة ؟ . . ما بالكم بالمرشدين ؟ . . ما بالكم بمن قال فيهم رسول الله « العلماء ورثة الأنبياء » ؟

يا دعاة الإسلام .

هل تستجيبون لتكليف الرسول ؟ . .

هل تحملون حقاً مسئولية الدعوة ؟ . .

هل تقدرون على تبليغ هذه الرسالة ؟ . .

هل يستطيع المسجد أن يتفاعل مع الأحداث ؟ . .

هل تستطيعون توعية الجماهير بأحكام الدين ؟ . .

هل تستطيعون هذا ، أم أن هناك ما يحول بينكم وبين أداء هذه الرسالة ؟ . .

إنى أعترف بأنه ما من عمل لا تعترضه عقبات .. وما من مسئولية لا تقف فى سبيلها مصاعب .. ولو أضعنا كل الوقت فى بحث العقبات ، وفى تذليل المصاعب ، لكان ذلك اعترافاً منا بوهن العزيمة ، وضعف العقيدة . . وإن أردنا النجاح ، وجب أن نكون أكبر من كل عقبة ، وفوق كل صعوبة ، واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

لذلك ، فإنى أفضل فى مجال الدعوة ألا أناقش الصعاب ، بل أناقش الدوافع ، ولا أعترف بالعقبات ولكنى أتفق معكم على الأهداف ، وبقدر ما فى نفوسكم من عزم ، سنحقق ما نريد ، وبقدر ما فى قلوبكم من إخلاص ، سيكون لكم التوفيق .

ألا فخبرونى بربكم ، أية أعباء ألقيت على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وكان يتيماً ، وكان عائلاً ، وكان ضالا : ولكنه استقام كما أمر ، وحمل العبء وحده . . لم تهزه الأحداث . . لم يكترث للصعاب . . لم يسلم بالعقبات . . لأنه آمن بربه . . لم يشرك بعبادته أحداً ، فإن الشرك لظلم عظيم .

الشرك أيها الدعاة من أكبر الكبائر . . إنه يقعد بالناس عن العمل . يورثهم التحلل والتفكك . يثبط العزائم .. يكل أمر الناس إلى الناس . إلى ضعف وذلة وهوان .

فإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون .

وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقناكم ، ولوا وهم معرضون . يخشون الفقر ، ويحسبون أنهم بالشح سيؤمنون حياتهم ، وهم لايشعرون بأنهم يشركون بمن عنده خزائن السماء والأرض ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين .

إن مسئوليتكم محددة واضحة ، وأنتم أول المكلفين بتبليغ ما أمركم به وما دعاكم إليه الرسول .

وليس من شك فى أن ظروفكم اليوم أيسر بكثير من الأهوال التى تعرض لها هذا الرسول الكريم . . وليس مطلوباً منكم أن تكونوا يتامى فقراء كما نشأ . . وليس مطلوباً منكم أن تربطوا الأحجار على البطون كما فعل !

كل ما يرجى منكم هو تبليغ رسالته ، وحمل أمانته ، ودعوة الناس بدعوته . فإذا عرفتم مسئوليتكم ، وإذا اتجهتم إلى الواجب مخلصين ، فلن تقف أمامكم عقبة ، ولن تعترض سبيلكم مصاعب . . سيدفعكم الإيمان إلى الاقتداء برسول الله ، وإلى التمسك بالهدف من رسالته ، لتكونوا حقاً ورثة الأنبياء .

(فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) .

(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

فهل لنا أن نتدبر النور الإلهى حين يهجم الظلام ؟ . . هل لنا أن نعود إلى الكتاب المبين لنهتدى يوم تتفرق بنا السبل؟

الرحمن علم القرآن . . كيف علمه ؟

خلق ابن آدم وعلمه كيف يفصح ، وكيف يبين ، وكيف يتدرب على الاتصال بخالقه ، وكيف يرى الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)

إن أرحم الراحمين قد بعث رسوله هدى ورحمة للعالمين .

فما هى الرحمة التى بعث بها النبي العربى الكريم ؟

أهى تلك العاطفة البلهاء التى تضطر العاجز إلى العفو عن ظالمه لأنه أقوى منه ؟

لو كان الأمر كذلك لرحم سيدنا محمد أعداءه ، وكانوا ذوى قوة وسطوة وأكثر عددا وعدة ، ومع ذلك فقد أمره ربه بقتالهم ، يوم غرتهم أموالهم وأولادهم وظنوا أن فى استطاعتهم القضاء على الرسالة والرسل ، ولكنه الإيمان متى استقر فى القلوب ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) .

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)

وهكذا أمر الله رسوله بأن يؤلف جيوشه من المؤمنين ، وأن ينظم صفوفهم للجهاد ، وأن يجعلهم عدته فى الحرب لإعلاء كلمة الله . لنشر رسالة الرحمة . الرحمة الشاملة الواعية . الرحمة التى تبرز فى كل معنى من معانى القرآن ، والتى كانت ولا تزال وستظل الهدف الأسمى من رسالة الإسلام .

وما كان طريق هذه الرسالة ، منذ البدء ، سهلاً ميسوراً ، فقد لقى الرسول والذين آمنوا معه كثيراً من أذى الكفار والمشركين والمنافقين ، ولكنهم صبروا ، وصابروا ، واعتصموا بحبل الله ، فأيدهم بنصر من عنده ، لأنهم لم يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ولأنهم يوفون بعهدهم ، ولاينقضون الميثاق ، ولأنهم يصلون ما أمر الله أن يوصل . يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . هؤلاء هم جنود الرحمة . هؤلاء هم قاعدة البناء . هؤلاء هم الذين يعوّل عليهم فى تحقيق الرسالة ، وإشاعة الرحمة ، وتحقيق العدالة ، وإقامة خير أمة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

وإننا لنعجب الآن ممن يطلبون الرحمة ممن لم يرحموا الأمة . .

كيف يمكن أن يكون هذا ؟

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ، إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْه) .

هذه هى القدوة يا دعاة الإسلام فى مجال التفرقة بين المؤمنين ، وبين الكافرين والمشركين .

إننا ننادى الآن بثورة اجتماعية .. ننادى بالعدالة لمن فقدوا العدالة . ننادى بالحياة لمن تقطعت بهم أسباب الحياة . ننادى بالرحمة الشاملة الواعية للمعذبين فى هذا الوطن . ننادى بتطبيق شريعة الله .

(هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فى الأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَر فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) .

سوف يسأل كل منكم عن علمه كيف عمل به . سوف يسأل كل منكم عن رسالته كيف أبلغها . سوف يسأل كل منكم عن النور الذى يحمله كم من الناس استضاء به .

إننا الآن فى مجال تنظيم الصفوف ، وما كانت دعوة الرحمة إلا دعوة اتحاد وتعاون ، ومن خرج على هذه الدعوة ، فهو أنانى مشكك وظالم لنفسه وللناس ، ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية .

فلا عجب إذا وجدنا بين الصفوف من يرون فى تطبيق العدالة خطراً عليهم ، ولاعجب إذا وجدنا فى مجموع الأمة نفراً كارهين لتحقيق الرحمة ، فهكذا كان شأن الكفار والمنافقين مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ... وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ، قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) .

ليس هذا فقط ، بل كانوا يبعثرون الأموال لشراء ذوى النفوس الضعيفة .

(إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ) .

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ) .

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) .

تلك حدود الله ، كشف بها أعداء دينه ، والخارجين على شريعته ، وجعلهم شر الدواب ، يؤمنون بالباطل . ويكفرون بالله ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

أيها الإخوة الدعاة .

إن الله قد امتحن المؤمنين ، منذ بعث فيهم رسولا منهم . ابتلاهم بالكفار والمشركين ، وأمرهم بحربهم ، ونصرهم عليهم .

ثم ابتلاهم بطائفة المنافقين . أولئك الذين كانوا أخطر على الأمة من الكفار ومن المشركين .

وما تزال الأمة حتى اليوم مصابة بمثل هؤلاء .

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ . . يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) .

وكلنا يذكر أيها الإخوة قصة عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين فى المدينة .

لقد كان هذا الرجل سيداً فى قومه ، بل كان ملكاً على المدينة قبل أن يدخلها الإسلام . قام فى وجه الدعوة أول الأمر ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووجد ابن أبىّ نفسه أمام قوة لا تغلب ، أعلن إسلامه ، واعتزم أن يهدم من الداخل .

رأى المسلمين جمهرة قوية عزيزة مؤمنة ، تؤدى الفرائض ، وتتحرك للفتح من مسجد قباء بالمدينة .

وقد أقام عبد الله بن أبيّ وجماعة المنافقين مسجداً بجواره ، وبعثوا بنفر منهم إلى رسول الله يقولون له : إننا قد بنينا مسجداً يرعى ذى العلة ، ويساعد صاحب الحاجة ، ويأوى شريد الليلة المظلمة ، والمستجير من برد الشتاء . ونحب أن تصلى لنا فيه وتباركه .

فقال النبى : إنى على جناح سفر ، وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه .

فلما رجع النبى من غزوة تبوك ، هم بفتح المسجد . فناداه جبريل بالآيات البينات :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى « يعنى مسجد قباء » مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

هنا دعا النبي بعض صحابته من المجاهدين : وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه ، ثم أحرقوه .

فانطلق الرجال المؤمنون إلى مسجد المؤامرات والفتن ، فهدموه ، وأحرقوه ، وفر أهله منه . وانكشف عبد الله بن أبيّ وأتباعه ، وتطهرت صفوف المؤمنين من المنافقين الذين قضى عليهم بأن يكونوا فى الدرك الأسفل من النار .

وهكذا أيها الإخوة . يوضح لنا الإسلام معادن الناس فى ثلاثة :

المؤمن وهو المواطن الصالح الذى يعرف ربه ، ويعرف وطنه ، ويعرف أنه يستمد عزته من عزة الله .

والكافر هو العدو لذلك كله ، الخارج على الدين والقانون والنظام . يستوى فى ذلك المقيم والوافد .

والمنافق وهو أشد خطراً من الكافر ، لأنه ينتسب إلى الدين رياء ، ويتمسح بالإيمان خداعاً

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) .

وهكذا ترون معى أن انتشار دعوة الرحمة لم يكن بالأمر السهل ، وأن العقبات والصعوبات لم تكن فى الإمكانيات ، بقدر ما كانت فى النفوس . كانت صراعاً بين الحق والباطل . كانت حرباً بين الإيمان والكفر والشرك والنفاق . ثم نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

انتصرت عقيدة الإيمان ، وتخطت جميع العقبات ، وحطمت جميع الصعاب ، لأن الرحمة كانت الهدف ، ولأن الرحمة كانت الغاية ، هدف الدعوة ، وغاية الرسالة ، الرسالة التى هى أمانتكم . والدعوة التى هى عملكم .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً) .

أكتب هذا وأدعوكم إلى أن تزيدوا الناس معرفة بدينهم ، وبقوة عقيدتهم ، وبكل حقوقهم . أدعوكم أن تنشطوا إلى تحويل المساجد إلى مراكز للإشعاع ، ولا يكفى فقط أن تقام فيها صلاة ، فقد شرعت الجماعة لتوحيد الصفوف ، وتنقية الصدور ، وتوعية المؤمنين بكيد الكافرين والمنافقين ومن يسعون بينهم بالدس ، والهمس الجبان .

إن دعوة الثورة الاجتماعية هى الدعوة إلى الرحمة .

ومن يخرج على هذه الدعوة ، أو يحاول التشكيك فيها ، فهو خارج على وحدة الأمة . فاكشفوهم حيث وجدتموهم ، إنهم أعداء الشعب وأعداء الدين . فإن من يقف فى سبيل العدل يدافع عن الظلم . ومن يقف فى سبيل الكفاية إنما يعمل على إشاعة الفقر . ومن يحاول تفرقة الكلمة ، فإنما يفتح الطريق أمام الحزبية ، والرجعية ، والانتهازية ، والأنانية ، وكلها مرادفات للشرك والنفاق والضلال .

لقد أردت بهذه الخواطر أن أضع أمامكم صورة لتنظيم القوى الشعبية فى مفهوم الإسلام . فقد انتشر هذا الدين القيم بقوة الإيمان ، وداس فى طريقه قوى الكفر والشرك والنفاق ، لكى تسود الرحمة فى هذه الأرض . والرحمة كما قدمت هى جوهر الرسالة ، فاجعلوها قبلة أعينكم . ولتكن المساجد منذ اليوم أوعية للنور ، وأدوات لترجيح كفة المؤمنين ، وعزل الكفار والمنافقين ، حتى لاتكون فى بناء هذه الأمة ثغرة ، وحتى يستقيم الأمر فى حياتنا ، على شريعة العدل شريعة الله .

هذا هو دعاء الثورة منذ قامت . أسست بنيانها على تقوى من الله . تعمل ما وسعها العمل على تخليص هذا الشعب ممن أفسدوا عليه إيمانه ، وممن زلزلوا عقيدته ، وممن حكموه بالباطل ، وممن حرموه حق الحياة ، وممن أذلوه وهو العزيز بأمر الله .

تحت راية القرآن

إنه الشوق إلى البيت العتيق . . والشوق إلى زيارة الروضة الشريفة . . شوق يأخذ بقلب كل من حج واعتمر وزار . . كلما أقبل موسم الحج كل عام . . وتكاد تنقله الذكريات إلى الكعبة وعرفات والمناسك . . وذلك المرعى الخصيب لكل قلب مضىء .

وسط هذه الموجة من الذكريات التى جرفتنى طول موسم الحج الأخير ، عدت مع الأحداث إلى موسم عام ١٩٥٤ ، وقد كنت فيه من حجاج بيت الله الحرام ، وأذكر أننى قد رأيت فى طريقى بين مكة ومنى ، جبلا عظيماً استحوذ على كل مشاعرى، وكلما سرت بجواره شعرت بأنه يجذبنى إليه . . حتى جاء اليوم الذى صعدت فيه هذا الجبل الشاهق (جبل النور) هذا الجبل الذى طالما تشرف بصعود سيد البشر وخاتم الأنبياء . . صعدته لكى أستوحى هذا المكان الطاهر — غار حراء القائم حتى الآن فى قمة جبل النور — صعدت إلى هذا الغار أستوحيه فكراً يقربنى من ربى وحبيبه .

فلما كنت فى داخل الغار المبارك . رأيت مكة على سطح الأرض صغيرة كأنها خريطة ، وتصورت حينما كانت تشرق الشمس على مكة ، كانت تشرق أولا على هذا الغار العالى ، تبشر أم القرى بمولد فجر جديد ودين جديد .

وطافت بذهنى يومها صور اعتكاف رسول الله وتعبده الأيام والليالى الطوال ، حتى صفت روحه ، وأشرقت نفسه ، وجعله التأمل الروحى على الموجة المناسبة للاستقبال العظيم . .

استقبال رسالة الرحمة للعالمين .

وذكرت يومها كيف ترددت فوق جبل النور أصداء الوحى الأول ، حينما جاء به جبريل إلى محمد فى هذا الغار . وأخذه بكل شدة وعنف ، وراح يضمه إلى صدره ويضغطه حتى كاد قلب النبى أن ينخلع . . ذلك لكى يحس بأنه أمام حدث كبير وخطير ، حدث ليس بالهين أو اليسير ، وإنما هو القرآن العظيم ، دستور بناء البشرية وميثاق الرحمة للعالمين .

إن هذا الحدث الضخم الذى هز مشاعر النبى وارتجف له قلبه ، ليطرح نفسه بيننا اليوم . ونحن نعيش هذه الشدة ، نعيش أحداثاً هزتنا هزاً عنيفاً ، وزلزلتنا زلزالاً شديداً ، لكى نتأسى برسول الله ولكى نشعر بحاجتنا إلى صدق الإيمان بالله ، ولكى نذكر موقفنا فى المعركة ، يوم خرجنا فى العاشر من يونيو ١٩٦٧ وقلنا لجمال عبد الناصر رحمه الله : إنك أنت القائد . . أنت الرائد . . لا أحد غيرك ، ونحن من خلفك. والله غايتك وغايتنا ، فهو الذى جمع من حولنا كل الخلائق ليس فى الوطن العربى فحسب ، بل فى الوطن الإسلامى كله .

لقد أحسسنا منذ وقوع العدوان الصهيونى الاستعمارى على أرضنا المقدسة فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، أننا مطالبون بالثبات فى الشدة ، مطالبون بحشد كل قوانا السياسية والاقتصادية والعسكرية . . وأحسسنا أكثر من هذا كله ، وقبل هذا كله ، بحاجتنا إلى تعبئة قوانا الروحية ، فإن قوانا الروحية لا يمكن أبداً أن تغلب ، وإن عزتنا الإسلامية — بحق القرآن — لا يمكن أبداً أن تهون .

كل ما نحتاج إليه هو أن نتدبر أمرنا مع القرآن ، هذه الثروة التى لا تعد لها ثروة ، نريد أن نتدبر ماذا يمكن للقرآن أن يصنعه ، وهو بين أيدينا رسالة ، وهو فى أعناقنا أمانة .

كل ما نحتاج إليه هو أن نعرف كيف نجنى ثمرات القرآن ، وهى ليست فى الترتيل والتطريب ، ولكنه التشريع الأمثل ، وهو التصميم المنزل لقواعد راسخة من العلم ، يبنى بها أمة القرآن ، صامدة لاتلين ، جادة لاتهزل ، أمة تعرف طريقها إلى الله ، فلا تضل أبداً .

(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) .

والقرآن ميثاق الرحمة للعالمين ، أنزله على قلب نبي الرحمة ، نوراً وهدى وشفاء ، وهو كتاب الله سبحانه القائل لنبيه .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) .

وهو سبحانه القائل للناس :

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) .

وهو جلت حكمته الذى علم القرآن لمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وانتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن أبلغ الرسالة وأدى الأمانة . . فكيف الطريق إلى مواصلة التبليغ وأداء الأمانة ؟ يجيب القرآن :

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

وما دامت للإنسان قدرة على البيان والإفصاح فرسالة الرحمة ستجد من يبلغها ، وأمانة القرآن ستجد من يؤديها . حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

ولكن هذا الإنسان مطالب بمعرفة دوره فى الحياة . . مطالب بمعرفة

واجبه كمسلم ومؤمن . . مطالب بأن يعرف أن دينه دين الجهاد . . الجهاد المتواصل من أجل تحقيق الرحمة، بالفرد ، والرحمة بالمجتمع والرحمة بالبشرية .

والجهاد من أجل تحقيق الرحمة للناس كافة ، يتطلب إعداد الأفراد المجاهدين ، والمجتمعات الصادقة الإيمان ،، والبشر الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له .

إنى ما ادعيت يوماً أنى من علماء الإسلام ، ولا من فقهاء هذا الدين ، ولكنى أتحدث كمسلم من واقع حى ، ألمسه فى عقيدتى وتصورى .

إنى أومن بأن الجهاد هو الركن السادس فى الإسلام . . فقد كتب الله علينا القتال كما كتب علينا الصيام ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والحج ، وكلها فرائض تعد الأجيال لحمل الرسالة وأداء الأمانة .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

كيف نسمع أو نقرأ هذه الآية ثم لانخشع ، ثم لانشعر بالرهبة ، هذه المسئولية ، مسئولية القرآن التى تتصدع أمامها الجبال ؟

لنتدبر أمرنا مع القرآن الكريم فى موقف نجعله مثلا . . لننظر موقف القرآن من المجتمعات الظالمة . . إنه يقول :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) .

لماذا ؟

إنه سبحانه يجسم معنى الظلم والتناقض فى نفس الآية :

(وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) .

كيف تكون هناك عدالة أو رحمة ، وهناك قصر مشيد ، وبجانبه بئر معطلة ؟

الماء . . ألزم ما يكون لحياة الإنسان . . نضب معينه .. وأين ؟ . . بجواره هذا القصر المشيد . . كيف يستقيم الأمر ؟

إن الله تعالى يريد أن يبين لأمة القرآن أن الإسلام فى حقيقته وجوهره دين اجتماعى . فإن تصور أحد أنه بصلاته وصيامه قد وجد طريقه إلى الجنة ، فهذا إسلام ناقص ، وإسلام عاجز ، ولابد أن يكتمل هذا الدين بتطبيقه الاجتماعي ، وذلك الذى يجعل من الفرد المسلم قوة وسنداً لأخيه المسلم ، فإذا كانت الحرب فكلهم إخوة فى الميدان ، وإن كان الجهاد فكلهم صف واحد ، لايتصورون الجهاد وقفاً على فرد أو جماعة ، وإنما يعنى جميع المسلمين فى ديار الإسلام . . وبهذا لاتستطيع أية قوة مهما كبرت ، أن تفت فى عضد المسلمين ، أو تنال من عزة العرب ، فإذا عز العرب عز الإسلام . وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

وإننا لنعلنها من هنا ، من قاهرة المعز ، عالية مدوية ، أنه لن تقف فى طريقنا قوة ، إذا نحن أعلينا راية القرآن ، وتخلقنا بخلق القرآن ، ودعونا للعالمين إلى القرآن ، وكنا جديرين بحمل رسالة القرآن .

علينا فقط أن نعود إلى قرآننا ، وإلى أحكام ديننا لندرك أنه خطة البناء لافضل مجتمع . . أمة الصدارة خير أمة أخرجت للناس .

ولذلك أعتقد أن علينا فى الأزهر مهمة كبرى ، هى قيادة الدعوة إلى القرآن ، وتنسيق جهود المنظمات الإسلامية فى هذا الميدان ، على الأزهر أن ينقل إلى الناس أحداث وأسباب نزول القرآن . . لكى

ننفعل فى كل موقف الانفعال الواجب ، الذى دعاه المسلمون الأوائل ، حينما نزل عليهم القرآن ، مجيباً على كل سؤال ، ومقدماً الحل لكل مشكلة ، فكان ذلك الانفعال .بل كان الإيمان الذى هد الجبال .

كان ذلك الإيمان الذى جعل فئة قليلة من المؤمنين ، تنطلق انطلاقاً الصواريخ ، فتفتح الأمصار وتمد رقعة الإسلام إلى أطراف الأرض ، حتى ارتفعت من الأندلس إلى الصين راية التوحيد ، وحتى أصبح تعداد المسلمين اليوم سبعمائة مليون أو يزيدون .

كلهم سيكونون معنا فى المعركة ، لو أعلينا ذكر القرآن ، وتخلقنا بخلق القرآن ، وكنا جديرين بحمل أمانة القرآن .

خاتمة

دعاء النصر

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ) .

إن حادث الإسراء والمعراج ، ليس أمراً عاديًّا ينحصر أثره فى زمان أو مكان ، ولكنه قبس يهتدى به الإنسان على مر العصور والأجيال ، فقد ربط بين الإسلام وبين الرسالات السابقة ، فى وحدة عقائدية لا تنفصم عراها أبداً . فقد كان إيذاناً بأن رسل الله جميعاً إخوة صدق ، أقاموا فى الأرض موازين الحق ، ونشروا فى دنيا الناس العدل والخير والمحبة والسلام .

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

حادث الإسراء والمعراج يؤكد أن الأنبياء جميعاً بناة بيت واحد ، يضع آخر لبنة فيه أشرف وخاتم الأنبياء ، صاحب هذه الذكرى . . وهذه الذكرى تجدد ، فيبنا حكمة الله فى الرسالات — وإن اختلفت الأزمان وتعددت الرسل — فهى واحدة فى دعوتها وغايتها ، جاء الرسل

لتبليغها ، وليرفعوا جميعاً علم التوحيد والإيمان ، فوق بيوت أذن الله أن ترفع ليذكر فيها اسمه ، ومنازل للوحى لا بد من تطهيرها من بذور الشرك والوثنية والفساد والطغيان .

وإذا كان على المسلمين تطهير المسجد الحرام ، فإن المسجد الأقصى كذلك واجب تطهيره من كل ما تأباه الرسالات الإلهية ولا يرضى عنه الله ، ولقد كان لذلك أثره فى قلوب المسلمين فامتلأت بحبه ، وامتد ذلك إلى جميع الآثار الدينية من حوله .

فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين ، كتب لأهل « القدس » من النصارى عهداً يلزم به من يخلفه من بعده ، وهو ألا تمس كنائسهم. ولا ينتقص منها ، كما يقضى بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم. وحينما أدركته الصلاة وهو فى الكنيسة قال : أين أصلى ؟ فقيل له « صل مكانك » ، فقال رضى الله عنه : « ما كان لى أن أصلى ههنا فيتخذ المسلمون من بعدى هذا المكان مسجداً » .

والتاريخ لم يعرف عن العرب تعصباً ، وإنما كان شعارهم التسامح والمحبة إلا إذا اعتدى عليهم معتد ، أوعدا على أرضهم غاصب ، فحينئذ يحتم عليهم الشرف الإنسانى وقضية الدفاع عن السلام والحرية ، أن يردوا الاعتداء ، ولا يتركوا لسياسة القوة أن تعيث فى الأرض فساداً ، أو تقلب الباطل حقّاً ، وتحيل الظلم عدلا :

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) .

هذه دعوة الإيمان التى تتمثل فى حياة الأفراد والأمم : سلوكاً وعملا ، وقولا وفعلا ، وقوة فى الحق وتضحية و بذلا .

والمؤمنون حقاً هم أصحاب الهمم العالية . والعزائم القوية والأيدى البناءة، هم أصحاب القلوب الواثقة. هم الذين يحملون أعباء الحياة بشرف وأمانة ، فلا يعتورهم ضعف ، ولا يتطرق إليهم وهن :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

والمسلمون اليوم تكتوى قلوبهم بأنباء ما يجرى فى المسجد الأقصى ، وكيف استباح الصهاينة حماه ، وانتهكوا حرماته ، وعبثوا بمقدساته ، وسفكوا من حوله الدماء ، وقتلوا الأبرياء ، كما قتلوا من قبلهم الأنبياء ، ونكلوا بالأطفال والشيوخ والنساء بغياً وعدواناً وزوراً وبهتاناً .

كما يؤمن المسلمون تمام الإيمان أنه أمانة فى أعناقهم وجوهرة غالية فى تاريخهم، تربط الماضى بالحاضر والأمس باليوم، وهم مسئولون عنه، وعن تطهيره من رجس الآثمين .

والأمة التى تحمى مقدساتها وتذود عنها ، أمة ذات عقيدة ومبادئ ، تحيا من أجلها ، وتجاهد فى سبيلها على هدى من ربها ، وثقة فى عون الله لها .

قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعلن : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

والعدو الذى يواجهه المسلمون والعرب عدو ماكر غادر حاقد فاجر، عاش على مر التاريخ متنكراً لكل المبادئ والقيم ، كافراً بجميع العهود والمواثيق ، لاتجمعه جامعة ، ولا تضمه رابطة ، ومن أجل ذلك يصطنع المبادئ التى يجتمع من حولها ، ويغرى بالخديعة والتآمر على مساعدتها ومساندتها .

لقد عاش دهراً طويلا ينشد الاستقرار حتى وجده فى فلسطين فى ظل سماحة الإسلام والمسلمين ، فهل حفظ الجميل ، وشكر المعروف ، لقد كان كالأفعى، متى شعرت بالدفء ودبت فى أوصالها الحركة ، أسرعت تنفث السم لتهلك من حولها ، وتفتك بأقرب الناس منها ، وكانت الضحية فى ذلك كله فلسطين بمساندة قوى المستعمر الأثيم !.

إن القوى التى تساند إسرائيل لاتساندها إيمانا بها أو اقتناعاً بمبادئها ، وإنما تساندها طمعاً فى أصواتها ، وتطلعاً إلى دعاياتها ومالها ، واستخداماً لها فى مخططاتهم الاستعمارية الباغية ، والمال والدعاية هما وسيلتا الصهيونية العالمية فى التأثير على القوى المتخاذلة التى لا تملك من أمرها شيئاً ، ولاسبيل لها إلا أن تنافق الصهاينة فى مخططاتهم وفى وسائلهم السرية التى تعتمد على جمع المال سيطرة ، وعلى التحكم فى الدعاية سبيلا لطمس الحقيقة والحق .

وإننا لانتصور أبداً أن القوى المساندة لإسرائيل تنتصر لكل ذلك إلا نفاقاً ورياء وتصوراً قاصراً عن إدراك حقيقة .

وفى هذا يصور الله سبحانه وتعالى موقف المساندة والنفاق عندما يقرر فى سورة الحشر فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) .

فى هذا اليوم المبارك نبشر بأن نصر الله قريب ، وهذه البشرى لاتستند إلى عاطفة متفائلة ، ولا إلى وعد من الله فحسب ، ولكن يؤكدها الواقع حين نتجه فى كفاحنا ونضالنا إلى الله عز وجل ، نعده وعداً بأننا سنكون عند عهده : المؤمنين به ، الواثقين فيه ، المتوكلين عليه ، نعمل العمل الصالح ، ونعد ونستعد كما أمر ، وننصره كما أمر ، ونعمل بإيمان كما أمر ، وبذلك وحده، يكون نصره بأسبابه ، ومساندته لقاء عملنا ، ووعده بقدر التزامنا .

وهذه البشرى عندما نبشر بها يتضح لأولئك الذين يساندون إسرائيل ضلال سعيهم وإفك مسعاهم ، لما يلمسون من تضامن العرب والمسلمين ، والتزامهم بالصبر والصلاة، وعملهم الدائب من أجل تحرير أرضهم ، واستعادة حقهم وإعادة مسجدهم ، لتعلو من فوقه شهادة أن لا إله الله ، ويولى المنافقون الأدبار ، وتلقى إسرائيل حسابها العادل ، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

« يارب . . يا من نتوكل عليك ، ويا من نثق فيك ونتجه إليك . . بحق هذه الذكرى وبحقك ، يا من أسريت بعبدك ليلا إلى المسجد الأقصى ، نستعين بذاتك العلية ونتجه إلى عزتك وقدرتك المتعالية ، فأنت القاهر فوق عبادك ، وأنت الرحمن الرحيم .

أنت إلهنا لا إله إلا أنت إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون فلمن تكلنا ونحن عبادك وحملة قرآنك وأمتك التى قلت فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

لمن تكلنا ، ألأولئك الذين قتلوا الأنبياء بغير حق ، وكفروا بكتابك وأنبيائك : فإليك نلجأ أن توفقنا لطاعتك والعمل والجهاد فى سبيلك ، حتى نكون أهلا لنصرك ، وأن ترفع عنا الغمة ، وأن تنصر هذه الأمة ، وأن تكون ولينا ، فأنت نعم المولى ونعم النصير .

* * *

وإنى إذ أختتم هذه الخواطر التى عنت لى بمناسبة مولد الرسول أعود فأذكر الآية الكريمة :

(... وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

* * *

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . . وأدعوه سبحانه أن يهب لنا من لدنه رحمة ، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأرجو الله لنا ولكم التوفيق والسداد والعمل الإيجابى فى خدمة الإسلام دين القوة البناءة ، ودستور الرحمة للعالمين .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٣٠٨٧ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١

دار المعارف بمصر

تقدم

سورة الرحمن وسور قصار

[عرض ودراسة]

للدكتور شوقى ضيف

مجموعة من سور القرآن الكريم تفسر فى ظل منهج تفسيرى قويم يعتمد على القرآن ذاته فى تفسيره – وعلى الحديث الشريف – تشتمل على :

فاتحة الكتاب . سورة الرحمن وهى سورة النعم الدنيوية والأخروية . سورة الملك . سورة التكوير . سورة الأعلى . سورة الشمس . سورة العصر . سورة الماعون . سورة الإخلاص . سورة الفلق .

وهذه السور هى التى تتناول أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام الخلقية والاجتماعية – بسطها الدكتور المؤلف من خلال آيات الذكر الحكيم ، بحيث يتخذ من الآية نوراً يهديه إلى مضمونها العام فى القرآن الكريم ، ويحاول عرضه ووصفه سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلاله ورحمته وآلائه فى الدنيا والآخرة ، أو بالرسالة والرسل ، أو بالملائكة والجن والشياطين ، أو بماهية الحياة بعد الموت والثواب والعقاب فى الآخرة ، أو بالتهذيب الروحى والخلق ، أو بالعلاقات العمرانية ، أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات ، وجملة الآثام ، أو بدفعه إلى استغلال ... وكشف قوانين الكون وأسراره ، أو بإيقاظ وجدانه و... والسمو به إلى الكمال الإنسانى المأمول .

٤٠٤ صفحات . قطع كبير — الثمن ٩٠ ...

